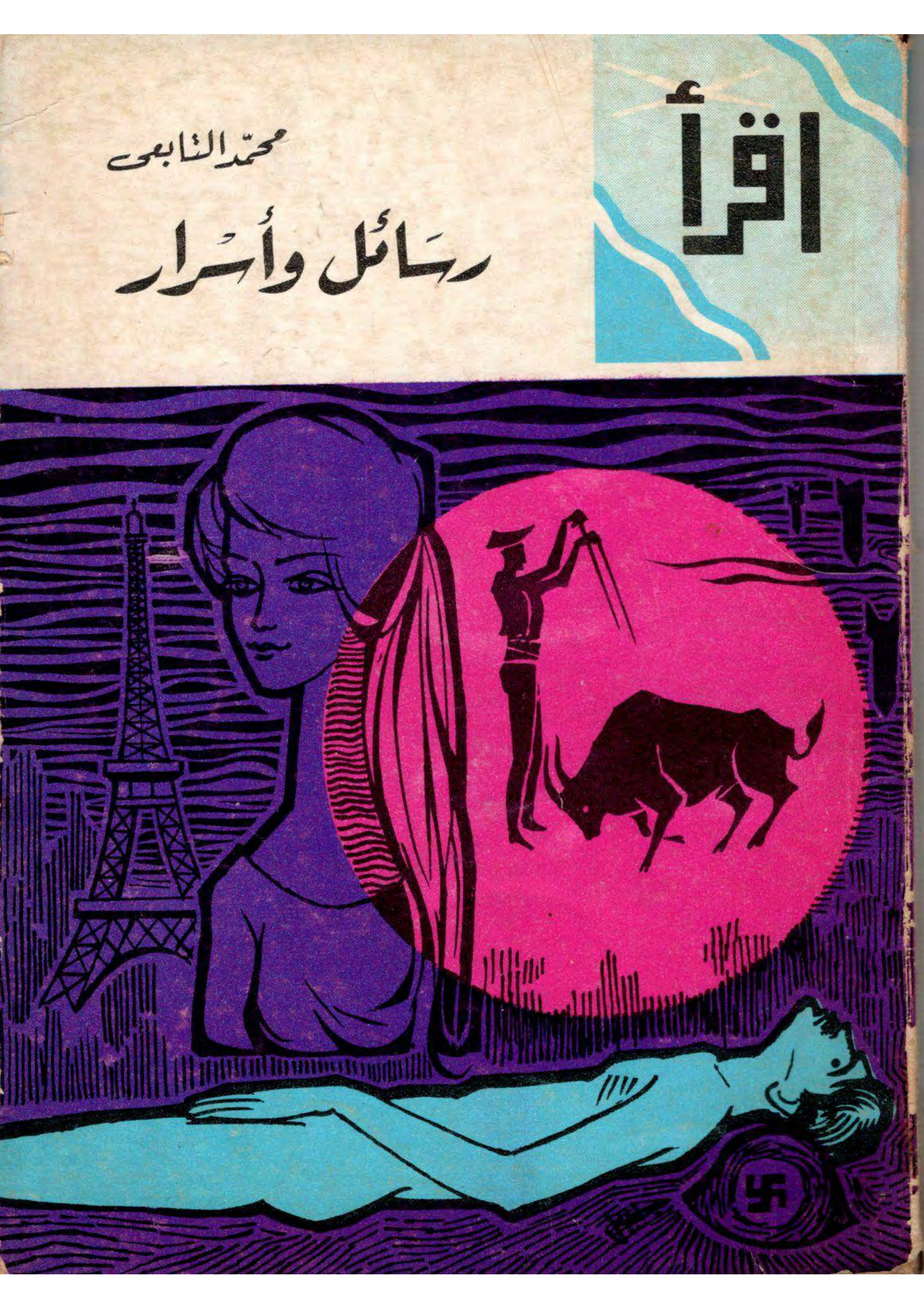

اقرأ
محمد التابعي
رسائل وأسرار



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان



دار المعارف بمصر

بأسلوب اليوم وتفكير الغد

محمد التابعي

رسائل وأسرار

اقرأ ٣٣٣
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٣٣ – سبتمبر سنه ١٩٧٠

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

كنت فى ألمانيا فى أغسطس ١٩٣٩

هبط بنا القطار من سان موريتز إلى زيوريخ . ثم مدينة بال . وفى محطة بال افترقنا .. أما أصدقائى فقد هزوا رؤوسهم وأكدوا لى مرة أخرى أننى مجنون ، ثم هزوا يدى بحرارة وركبوا القطار إلى باريس . وركبت أنا القطار إلى برلين .

كان ذلك فى يوم ٨ أغسطس ١٩٣٩ . وكانت الصحف الإنجليزية والفرنسية تنشر فى كل يوم أخبار حشد الجيوش الألمانية والاستعدادات العسكرية الهائلة التى كانت تجرى فى ألمانيا تحت ستار إجراء المناورات . وكان كل واحد يتكلم عن الحرب ، وألا مفر من وقوعها الآن ، لأن هتلر كان يعرف أن الاستعدادات الحربية تسير فى إنجلترا وفرنسا بخطوات واسعة .. وكل شهر يمر يزيد من قوة الحليفتين ، إذن ... إما الحرب الآن وإما لا حرب على الإطلاق .

هكذا كان هتلر يفكر .. أو هذا ما زعموا أنه تفكير هتلر !

ازدحمت إذن إشاعات الحرب وقرب وقوعها ، وكانت تنقلات الجيوش الألمانية وحشدها على الحدود الشرقية تجاه بولندا يزيد فى قوة الإشاعات .

وودعنى صاحب الفندق فى سان موريتز وهو يرجو لى السلامة ويقول إننى مجنون .

ونصح لى صديق سويسرى بأن أنتهز الفرصة وأتعلم اللغة الألمانية فى أثناء اعتقالى هناك . ثم قال : هذا إذا خرجت حياً من الاعتقال !

وقال موظف كوك وهو يناولنى دفتر تذاكر السفر إلى برلين :

نصيحتى إليك إذا كنت من أنصار طعام الفطور الإنجليزى أن تأخذ معك حاجتك من الزبدة والبيض !

وقالت فتاة سويسرية كنا ندعوها «أبو فصادة» أو « أم فصادة » لكثرة حركاتها : تذهب إلى برلين الآن ؟ لابد أن تكون شجاعاً .

ولكننى لست شجاعاً ، ولم تخطر لى الشجاعة على بال . وأصدقائى الذين يعرفوننى جيداً يستطيعون أن ينفوا عنى تهمة الشجاعة بكل تأكيد . والمسألة وما فيها أننى سئمت باريس . فغادرتها إلى سويسرا . وسرعان ما سئمت هذه أيضاً ، لأن سان موريتز فى الصيف غيرها فى الشتاء .

وكنت على موعد – منذ الشتاء الماضى – مع بعض أصدقاء لى فى أسكتلندا على أن نذهب معاً إلى النرويج . ولما تأخرت أنا عن الذهاب فى الموعد المتفق عليه أبرقوا إلى أنهم أبحروا فعلا إلى النرويج .

وفى ساعة ملل قررت السفر إلى برلين ، ومنها إلى فيينا . ثم بودابست . وبعدها أعود إلى مونيخ وسالزبورج ، ثم باريس ومرسيليا والباخرة ، ثم كنانة الله فى أرضه من أرادها بسوء ..... إلى آخره .

أى رحلة واسعة فى ألمانيا ، وبعدها العودة إلى مصر .

ولم يكن حديث الحرب يخيفنى فما أكثر ما سمعنا عن الحرب وقرب قيامها ، ولم تقم حرب ! ولو أن كل واحد أقام وزناً لحديث الحرب وشائعاتها ، لما كان أحد غادر داره وسافر إلى أوربا طوال العامين الأخيرين .

هكذا قلت لنفسى وأنا فى القطار فى طريقى إلى برلين .

* * *

ولم يكد القطار يغادر محطة بال السويسرية حتى دخل ضابط ألمانى ومعه موظفون آخرون من الألمان مهمتهم فحص جوازات السفر . وسؤال الركاب عما يحملونه من العملة الأجنبية ، وتفتيش أمتعة المسافرين

وأنا لا أعرف من اللغة الألمانية سوى الأرقام من واحد إلى عشرة .. وأما مازاد على عشرة فيدخل فى باب إنما العلم عند الله ! ....

دخل الضابط وحيا بابتسامة وأطلق فيضاً من الشينات والخاءات .. فقلت له : إنجليش ؟

أى هل تتكلم الإنجليزية ؟

قال : ناى .

قلت : فرانسيه ؟

قال : ناى .

وسكت وابتسمت .

وأشار هو إلى حقائبى وقال : سيجارتن ؟

قلت : ناى (أى لا) .

وابتسم سروراً من لغتى الألمانية ، وأطلق مقذوفات أخرى من الشينات والخاءات . ولما لم أرد ناولنى جواز سفرى مؤشراً عليه . وابتسم مرة أخرى ورفع يده وقال : هيل ..

ورددت عليه بهيل أحسن منها .

وانصرف الضابط وأصحابه .

* * *

وصلت إلى برلين فى تمام الساعة الثامنة صباحاً ونزلت فى فندق إيدن . ومن هذه الساعة بدأت أشعر أن « جو الحياة » غير الجو الذى اعتدت ، وأننى فى بلد .. غريب .. غريب من « الغرابة » .. من حيث النظم والقواعد ومقررات الحياة !

طلبت طعام الفطور .

ثم أسرعت باستدعاء الجرسون ، وقلت له : ما هذا ؟

قال : قهوة .

قلت : ولم لا تكون شاياً ؟

ابتسم ابتسامة خفيفة وأجاب : لأنك طلبت قهوة .

– هب أنى كنت طلبت شاياً فهل كنتم تقدمون لى نفس هذا السائل الأسود ؟

والواقع أن هذه « القهوة » كان يمكن أن تكون أى شىء وكل شىء إلا قهوة .

أما الزبدة فكانت مصابة بأنيميا أو فقر دم شديد . حدقت فيها قليلا فذابت تحت وقع نظراتى ، واستحالت إلى سائل أصفر رقيق ضعيف .

والخبز .. ترحمت على خبز سويسرا ، فقد كان خبز برلين أشبه بمخدة النوم المحشوة بقطن قديم .. كان الرغيف الصغير مملوءاً بالكلاكيع .

وبينما أنا أحاول التوفيق بين معدتى طرفاً أول والسائل الأسود اللون والكلاكيع طرفاً ثانياً ، دق الباب ودخل أحد موظفى الفندق وهو يقول : من فضلك ..

لقد ذكرت فى « الفيشة » التى حررتها ساعة وصولى إلى الفندق أننى مصرى من مواليد سنة كذا ، وصناعتى صحفى .. إلى آخره ، فهل أتفضل باستقبال أحد موظفى إدارة الصحافة الذى جاء ليكون فى خدمتى أثناء إقامتى فى برلين .

بهت . ووقفت كلكوعة فى فمى .

لماذا؟ ومن الذى أخبر إدارة الصحافة– بعد أقل من ساعة من وصولى– أننى هنا ؟ ثم من أنا حتى توفد إدارة الصحافة أحد موظفيها ليكون « فى خدمتى » ؟

قال موظف الفندق إنهم مكلفون بحكم القانون إبلاغ البوليس فى الحال خبر وصول الزائرين «الممتازين» ، والصحفيون معدودون من هذا

الصنف ، والحكومة الألمانية يهمها بطبيعة الحال أن يطلع الصحفيون الأجانب على « الحقائق » ، ولهذا فهي تحرص على أن يصحبهم فى أثناء إقامتهم فى برلين موظفون يطلعونهم على الحقائق ويشرحون لهم كل شيء .
الألفاظ مؤدبة جداً ، ولكن المعنى أوضح من كل بيان .

معنى هذا أن الصحفى الأجنبى مراقب فى برلين لا ينقل خطوة إلا فى صحبة رقيب .

وقلت لموظف الفندق إننى أعتذر عن عدم مقابلة مندوب إدارة الصحافة ، لأننى أزور برلين بصفتى الشخصية ، لا بصفتى صحفياً وإن لى فى برلين أصدقاء جئت لزيارتهم ، وليس فى نيتى البحث أو الاطلاع على الحقائق ، وإن الأماكن التى سوف أزورها فى برلين هى الجوكى كلوب والسيروز والكنيجن ... هذه ليست فى حاجة إلى دليل ..

وجميعها من الأندية الليلية ، أى شارع عماد الدين برلين !

ولكن موظف الفندق نصح لى باستقبال مندوب إدارة الصحافة لكى أبلغه بنفسى رأيى هذا ، وقد كان .

ودخل المندوب ، وهو شاب وسيم الطلعة حسن البزة ، حيانى وكل ما فى عينيه يعتذر عنه ويقول : الأوامر هى الأوامر .. وأنا عبد مأمور .

أعدت عليه ما قلته لموظف الفندق .. فسألنى من هم أصدقائى فى برلين الذين أنوى زيارتهم ؟

قلت : هرريشارد إيشبرج مخرج السينما وزوجته كيتى يانتسن ممثلة السينما ، وهيلدا كروجر ممثلة السينما .

قال : أعرفهم .

وبدا عليه كأنما هذه الشخصيات ليست بالتى تؤتمن على شخصى

الضعيف . أو ليست بانتي يركن إليها في إطلاعي على « الحقائق » .. لأنه ظل واقفاً ينتظر .

وفجأة فتح الله على فقلت : وربما زرت أيضاً صديقي أرنست فون فالكانهين ..

وهو ليس صديقاً لى بالمعنى المفهوم . فقد كنت قابلته فى سان موريتز . وتناولنا العشاء معاً مرتين . وهو ابن القائد الألمانى المشهور فون فالكانهين : ومن كبار رجال « الجستابو » أى البوليس السرى الألمانى . ولهذا ذكرت اسمه .

وتحرك مندوب إدارة الصحافة وبدا عليه الاهتمام وقال : هل تعرف الكابتن بارون فون فالكانهين ؟

قلت : نعم . وقد عرفته فى سان موريتز فى يناير ١٩٣٨ .

— إذن كل شيء على ما يرام .

وحيانى الشاب بأدب ومشى إلى الباب .. وهنا وقع نظره على آلة السينما الصغيرة التى أحملها معى دائماً فى رحلاتى . فوقف وقال : سينما كوداك ؟

قلت : نعم .

قال بابتسامة : نصيحتى إليك ألا تستعملها فى برلين .. وإلا زارك غيرى من رجال البوليس ، وربما ضايقك زيارته . وقد لا تنفعك ساعتها صداقتك بالكابتن فون فالكانهين .

وشكرته وانصرف .

وتنفست ..

كل هذا بعد ساعة واحدة من وصولى إلى برلين .

وأحسست أن جو الحياة فى برلين « غريب » من حيث النظم والقواعد ومقررات الحياة ، بل من حيث الدقة فى النظام . وإلا فماذا

تقول فى بلد يهبط فيه الصحفى الأجنبى فلا تمر ساعة واحدة على وصوله حتى يهبط عليه مندوب من إدارة الصحافة لكى يرافقه فى أثناء إقامته بحجة الرغبة فى إطلاع الزائر « الممتاز » على الحقائق .. أو بعبارة أخرى لكى يكون رقيباً عليه ؟

فى أقل من ساعة واحدة أخذ البوليس السرى علماً بوصولى ، فاتصل بإدارة الصحافة ، وهذه أوفدت مندوبها إلى الفندق .. هذه دقة فى النظام .. تخيف !

وتركنى مندوب إدارة الصحافة وأنا فى حالة نفسية غير مستحبة .

ومن خلال زجاج النافذة ألقيت نظرة على الشارع ، وكانت الساعة منتصف العاشرة صباحاً ، فإذا هو مقفر إلا من قليلين كانوا يسرعون فى خطاهم مطرقى الرؤوس كأن على أكتافهم حملا ثقيلا من هموم الحياة .. وكانت السماء قاتمة اللون ، والجو مشبعاً برطوبة ثقيلة تزهق الأنفاس .

وعلى الباب الموصل بين غرفة النوم وغرفة الحمام وجدت إعلاناً مطبوعاً على قطعة من الورق المقوى (الكرتون) الأصفر اللون ، والإعلان فى ثلاث لغات إحداها الفرنسية :

« لا تتكلم عن أى شىء يتعلق بالدفاع عن سلامة الدولة »

« لا تسأل عن أى شىء يتعلق بالدفاع عن سلامة الدولة »

« اذكر أن عقوبة الخيانة هى الإعدام »

« اذكر أن عقوبة الجاسوسية هى الإعدام »

. . . .

وهذه هى برلين الضاحكة الناعمة كما صورها لى بعض أصدقائى المتزوجين من ألمانيات .

* * *

وقمت إلى التليفون وطلبت أن أتصل بالهر ريشارد إيشبرج فى برلين .

وبعد دقائق قالت عاملة التليفون إن هر إشبرج يقيم الآن فى ضاحية تريبن خارج برلين .

اتصلت به وبالسيدة زوجته – واسمها المعروف فى عالم السينما هو كيتى بانتسن – واتفقنا على أن يرسلا لى سيارتهما فى الساعة السادسة مساء . لكى أتناول معهما طعام العشاء فى مصيفهما خارج برلين .

وكان ذلك يوم الأربعاء ٩ أغسطس .

* * *

وريشارد إيشبرج مخرج سينمائى كبير معروف ، بل لعله اليوم أكبر مخرجى السينما فى ألمانيا ، وبطبيعة الحال فإن زوجته كيتى هى التى تقوم بالدور الأول فى معظم الروايات التى يخرجها وهى – مثل زوجها – ألمانية الأصل ، لكنها أمريكية التربية والجنسية .

وكنت قابلتهما لأول مرة منذ أربعة أعوام فى فيينا . ثم تقابلنا بعد ذلك عدة مرات فى مشاتى سويسرا وفى باريس ، وتوطدت بيننا أواصر معرفة وثيقة .

* * *

قطعت السيارة المسافة بين برلين وتريبن فى نحو ساعة ... وإذا بنا على أبواب غابة شاسعة الأطراف قال لى سائق السيارة إن مساحتها نحو ثلاثة آلاف فدان ، وإنها ملك هر إيشبرج ، وقد اعتاد أن يقضى أشهر الصيف فى « كشك » للصيد تحيط به حديقة واسعة فى وسط الغابة .

دخلت بنا السيارة إلى أن وصلنا أمام كشك الصيد ، فإذا بالكشك « فيلا » كبيرة مشيدة من الخشب والطوب الأحمر .

وأقبلت سيدة الدار ترحب بى ، ومعها سيدة أكبر منها سناً قدمتنى إليها وهى تقول : أمى .

وجلسنا حول مائدة وضعت تحت إحدى الأشجار الباسقة فى الحديقة .

وأقبل الخادم يحمل المرطبات.

وقالت كيتى إن ريشارد – زوجها – يتمشى فى طرف الغابة مع مؤلفه . أى الكاتب الذى اعتاد أن يضع له سيناريو شرائطه السينمائية وإنه سيحضر بعد قليل .

وهنا التفتت إلى أمها فجأة وقالت : أنت صحفى كما فهمت .. فهل أنت مجنون ؟

لم أفهم ما هى العلاقة بين الصحافة والجنون إلا أن يكون مجرد الاشتغال بالصحافة جنوناً ، وهو رأى يجد له أنصاراً كثيرين .

على كل حال هذه هى المرة الرابعة التى يقال فيها إننى مجنون ، لأننى دخلت ألمانيا .

وبدت الدهشة على وجهى .

وأقبلت الخادمة تحمل وعاء مملوءاً بقطع الثلج .

وسكتت الأم حتى انصرفت الخادم وعادت تقول : الصحفى مفروض فيه أنه مطلع على مجرى الأمور . فكيف إذن تدخل ألمانيا ؟ ألا تعلم أن الحرب سوف تقوم بعد ثمانية أيام ؟

لم تقل « قد تقوم » بل قالت : « سوف تقوم » !

وقالت كيتى : إذا قلت لأحد إننا قلنا لك هذا الكلام ، فإنهم يقبضون علينا جميعاً ، ويضعوننا فى أحد المعتقلات . فأرجوك ألا تبوح لأحد بما قلناه .

وعادت الأم تقول : لقد عرفت من كيتى قبل أن ألقاك أنك صديق لها ولريشارد . ولهذا رأينا من واجبنا أن نحذرك أيها المصرى . اخرج من ألمانيا قبل يوم ١٥ . لأن الحرب ستقع يوم ١٧ ... ونحن أنفسنا سنترك ألمانيا يوم الثلاثاء القادم ، ونذهب إلى سويسرا حيث نقيم إلى أن تنتهى الحرب .

وأقبل فى هذه اللحظة ريشارد إيشبرج ومؤلفه السينمائى ، وانقطع الحديث . وكان يدور همساً وبسرعة ، ومن طرف واحد كما لاحظ القارئ .

أما أنا .... فماذا أقول ؟

لقد بوغت .. الحرب إذن حقيقة واقعة . ولقد كان أصدقائى فى سويسرا على حق يوم قالوا إننى مجنون ...

ولعل شيئاً من هذا كله كان يبدو على وجهى حين وقفت أهزّ يد ريشارد إيشبرج ، وأنحنى أمام زميله المؤلف السينمائى ، لأنه التفت إلى زوجته وتبادلا نظرة خاطفة ذات معنى ، عرف منها الرجل أن حماته وزوجته قد أطلعتانى على السر .

* * *

جلسنا ... وكان بيدى قدح من « الفرموت » الممزوج بالصودا .

هأنذا مصرى غريب ... جالس فى وسط حديقة ألمانية فى غابة ألمانية وسط ألمانيين سوف يصبحون بعد أسبوع واحد خصوماً وأعداء لى وللوطن .

والشمس الغاطسة وراء الأفق ترسل من خلال ظلام الغابة خيوطاً حمراً داكنة اللون . تتحرك بسرعة كأنها أشباح ترقص بين الأشجار .

وبين لحظة وأخرى يقول أحد الجالسين : ما أبغض هذا البعوض ! ويهوى بيده يحاول قتل بعوضة لدغته فى وجهه أو ساقه أو يده . والبعوض كثير الانتشار فى الغابات المحيطة ببرلين .

قالت ربة الدار : وكيف نفرتيتى الآن ؟

قلت : ماذا ؟

قالت : نفرتيتى !

نفرتيتى ؟ ... احنا فى إيه والا فى إيه ؟ ! ...

قلت : ماذا ؟ لعلها بخير .. أظن أنا الذى يحق لى أن أسأل هذا السؤال ، لأن نفرتيتى عندكم ، فى متحف برلين ..

وهنا ارتسمت علامات الدهشة على وجوه جميع الحاضرين ، واندفعوا يتكلمون معاً ، وفى وقت واحد ..

— نفرتيتى فى برلين ؟ .. مستحيل ! .. إنها فى مصر . فى المتحف هنا صورة منها فقط ... نفرتيتى أعيدت إلى مصر منذ عامين .. لقد كنت فى المتحف منذ يومين اثنين ...

هذا هو اللغز الذى سمعته فى برلين أيامئذ ! ... إن أهالى برلين يعتقدون أن تمثال نفرتيتى الملكة المصرية قد أعيد إلى مصر ، وأن متحف برلين قد احتفظ بصورة فقط من التمثال المذكور . هذا هو الاعتقاد السائد فى برلين ، وهذا ما يقوله موظفو متحف برلين للزائرين .. فماذا تفهم منه ؟

لقد قيل — يوم سعت مصر لاستعادة التمثال الثمين — إن هتلر قال لسعادة حسن نشأت (باشا) وزيرنا المفوض يومئذ فى برلين — قال له على سبيل الاعتذار عن عدم إمكان إعادة التمثال إنه — أى هتلر — أصبح عاشقاً مغرماً بنفرتيتى حتى لا يستطيع عنها بعداً .. فهل أخذ هتلر تمثال نفرتيتى لنفسه وأقامه فى داره ، وقال لأهل برلين إن التمثال قد أعيد إلى مصر ؟ .. ربما !

بهذا ومثله جلسنا نتحدث .. عن نفرتيتى وعن السينما وفيلم السويس وفيلم مارى أنطوانيت ..

ولكن لا كلمة فى السياسة .. لأن أهل برلين يتحاشون الحديث فى السياسة ولو كانوا فى بيوتهم ، خوفاً من الجواسيس .

ولكننى كنت قلقاً أريد أن أعرف تفاصيل ما سمعت . هذه الحرب ،

هل تقوم حتما بعد أسبوع ؟

لقد جئت ألمانيا ومعى — كما قلت — تذاكر السفر من «كوك» إلى ڤيينا وبودابست ، ثم عودة إلى مونيخ وسالزبورج ... وكان معى أيضاً مبلغ كبير من « البنجو » وهو العملة المجرية ، اشتريته فى سويسرا لأنفقه فى بودابست .

وليس من السهل أن « الخبط » مرة واحدة برنامج رحلتى لمجرد إشاعة عن قيام الحرب بعد أسبوع .

كان طبيعياً أن يضيق صدرى ، وأن أطلب معرفة التفاصيل . وعلى أى أساس قام اعتقاد كيتى وأمها بأن الحرب ستقوم حتما بعد أسبوع .. أريد أن أعرف هذا قبل أن أمزق تذاكر السفر وأسرع بالخروج من ألمانيا عائداً إلى سويسرا أو برلين .

وملت على كيتى وكانت إلى جانبى وقلت همساً بين ضجة حديث الآخرين : أريد أن أتكلم معك على انفراد .

وقبل أن تجيب لمعت أنوار سيارة أمام باب الحديقة الخارجى . ووثب ريشارد إيشبرج واقفاً وأسرع يستقبل الزائر القادم .

وقالت كيتى يانتسن : هر دكتور شبلتستوسر .

— من هو ؟

قالت كيتى من وراء كتفها ، وهى تسير مسرعة نحو الزائر القادم : نازى كبير .. مدير الغرفة التجارية ووكيل الدكتور فرانك وزير الاقتصاد .

دخل هر دكتور شبلتستوسر ، وهو ألمانى كما نتصور الألمان : طويل القامة ، ضخم الجثة ، قوى الفكين ، وذقنه يكاد يكون مربعاً متساوى الأضلاع .

ووقف الموجودون يحيونه .

وقدمني إليه رب الدار ، فألقى على نظرة وحياني بدون اكتراث .. ثم قال بإنجليزية مفككة الأوصال إنني ثاني مصرى قابله . أما المصرى الآخر فهو عزيز قطة (بك) .

وجلسنا نتحدث ، أو على الأصح جلسوا هم يتحدثون بالألمانية ، وانصرفت أنا إلى قدحى المملوء بالفرموت والصودا وإلى طرد البعوض .

كانت الساعة قد جاوزت الثامنة مساء ، وخيّم الظلام على الحديقة ، واقترحت ربة الدار أن ننتقل إلى قاعة الطعام .

والتفتت إلى تقول أو على الأصح تعتذر : لست غريباً عنا .. العشاء بسيط جداً ، وهو مكون من (وذكرت اسم نوع من سمك المحار شبيه بالجنبرى) ، ومن لحم الوعلVenison(وهو شبيه بلحم الغزال) وقد اصطاده ريشارد هذا الصباح .. لقد دعوناك بدون تفكير لتناول العشاء ، وكان يحسن بنا أن نعد لك عشاء مناسباً ، فهل أنت نادم على قبول الدعوة ؟

أجبت بما يناسب المقام ، ثم قلت إن هذه ستكون أول مرة أذوق فيها لحم الوعل .

وتحسست فى الظلام معدتى أوصيها بحسن السير والسلوك .

وكنا قد وصلنا إلى قاعة الطعام ، وهى غرفة مستطيلة مفروشة ببساطة تامة ، وجميع جدرانها تكاد تكون مغطاة تماماً برؤوس الوعول المختلفة الأحجام التى اصطادها ريشارد إيشبرج صاحب الدار .

جلسنا حول المائدة وطافت الخادمة بأقداح مملوءة بحساء الجنبرى .

ثم جاء دور لحم الوعل ، وهنا أمرّ سريعاً بالتفاصيل .

وكان الشراب نبيذاً ألمانيّاً فاخراً صبوه فى وعاء بلورى كبير ، وخلطوا به نوعاً آخر من نبيذ الرين ، ثم ألقوا فيه قطعاً صغيرة من التفاح والليمون .

وذاب تدريجياً جو البرود الذى خيم علينا منذ حضر هر دكتور شبلتستوسر وكيل وزارة الاقتصاد ، وطاف الحديث بالمائدة ، وتبودلت

بالألمانية نكات ونوادر لم أفهم شيئاً منها طبعاً . وقد كانت بين وقت وآخر تثير ضجة من الضحك الطويل .

وقالت كيتي – وقد أجلستني إلى جانبها – : إن بعض هذه النوادر عن زعماء النازى .

وأهل برلين – مثل اهل القاهرة – يسرهم كثيراً تبادل النوادر والفكاهات عن الزعماء والكبراء .

انتهزت الفرصة وقلت همساً : اريد أن أتحدث معك على انفراد قبل أن أنصرف . حكاية الحرب هذه ..

ولمعت عيناها ببريق تحذير فسكت .

وقال وكيل وزير الاقتصاد وهو يجرع النبيذ من قدحه العميق : هل تنوى الإقامة طويلا فى برلين ؟

قلت : أسبوعاً على الأقل ، وبعدها إلى فيينا فبودابست . ثم أعود إلى فيينا ، ومنها إلى ميونيخ وسالزبورج ، وأطوف بمنطقة سالسكمرجوت .

وكان لى غرض من هذا الإسهاب ، هو أن أجعله يتكلم لعل وعسى يكشف لى عن شىء .

وقد نجحت .

حدّق فى لحظة ، ثم انفجر فى ضحكة عالية .

قال : تريد إذن أن تبقى بيننا شهراً أو أكثر ؟

قلت : ربما .

ثم أضفت مبتسما : هل من اعتراض؟ إن إعلاناتكم تملأ صفحات الجرائد المصرية والإنجليزية والفرنسية ، وهى تحض على زيارة ألمانيا .. (زوروا ألمانيا .. زوروا قلاع الرين .. زوروا الغابة السوداء) .

قال : الإعلانات ! .. نعم ، أصبت . والغريب أن عدد السائحين فى ألمانيا زاد فى هذا الصيف عن كل عام سابق .

ثم أطلق مرة ثانية ضحكة طويلة اهتزت لها كتفاه العريضتان ودمعت معها عيناه .

هذا وقد انقطع الحديث بين الآخرين .. مكتفين بالإصغاء إلينا .

وبعد فترة سكون قصيرة : قال : ما هو رأيك فى الفوهرر ؟

ولمست يد كيتى ركبتى خفية من تحت المائدة ، كأنها ترجونى الحذر .

وتظاهرت بالتفكير لحظة ثم قلت : لقد فعل لألمانيا أكثر من أى ألمانى آخر .. وحتى الآن أثبت أنه فوق المستوى العادى للبشر .. (والتعبير الذى استعملته بالإنجليزية هو Almost unhuman)، ولكنى أخشى عليه من الاندفاع بهذه السرعة المخيفة .

ولقيت إجابتى استحساناً عاماً ، وفى المقدمة وكيل وزارة اقتصاد الريخ .

وهنأت نفسى على نجاحى فى التوفيق بين ضميرى وواجبى كمضيف عند هؤلاء القوم .

وعاد هر دكتور سبلتستوسر يسألنى : أظنكم تتكلمون دائماً الإنجليزية فى مصر ؟

قلت : كلا بل نتكلم لغتنا العربية .. ونحن نتكلم الإنجليزية كما نتكلم الفرنسية والإيطالية والألمانية ..

— وهل تحبون الإنجليز ؟

— هم حلفاؤنا الآن . منذ عقدنا معهم المعاهدة فى أغسطس سنة ١٩٣٦ .

هز كتفيه وقال : المعاهدات ! .. وإذا قامت حرب ؟

ــ سنكون طبعاً فى صف إنجلترا .

وهنا أنقذ المؤلف السينمائى الموقف ، ووقف وفى يده كأسه وطلب منا أن نشرب فى صحة رب الدار .

وعاد الحديث مشتركاً كما بدأ .. والخادم تملأ الوعاء البلورى بالنبيذ كلما خلا .. ورب الدار يملأ لنا الأقداح .

وفجأة التفت إلىّ الهر دكتور ــ وكانت نشوة النبيذ قد جعلته فى حالة مرح ظاهر ــ وقال : لا أدرى لماذا أقول لك أيها السيد المصرى .. ولكن اختصر إقامتك فى ألمانيا ... بقدر الإمكان ..

ثم عاوده الحذر فقال : لست أعنى أن الحرب واقعة لا محالة .. ولكن من يدرى ..

قلت : وإذا وقعت الحرب ؟

قال وهو يضحك : سوف يعتقلونك .. ربما توسطنا لك وجعلنا معتقلك هنا فى دار كيتى .

وابتسمت أنا وأجبت : إذن سأدعو يومها أن يطول أجل الحرب !

* * *

لم يبق أدنى شك عندى فى أن احتمال قيام الحرب أمر جدى ، وأن الرجل برغم سكره لم يستطع أن ينسى حذره وإلا فاض بأكثر مما قال .

وأدركت كذلك أن الرجل لا يعرف شيئاً عن مشروع أصدقائه أصحاب الدار ، وهو الخروج من ألمانيا والإقامة فى سويسرا إلى أن تنتهى الحرب .

وانتهت السهرة بين أحاديث مختلفة ، وقمنا نشكر ونستأذن أصحاب الدار فى الانصراف .

وقالت كيتى وأنا أنحنى فوق يدها : ألا تزال تريد أن تكلمنى على انفراد ؟

قلت همساً : كلا . وشكراً . فقد عرفت ما أريد .

ولما كان هر دكتور شبلتستوسر يسكن فى برلين ، وكانت سيارته معه . فقد دعانى إلى الركوب معه بدلا من تكليف سيارة أصحاب الدار بإيصالى إلى فندق إيدن فى برلين .

وفى السيارة استمر الحديث .

قلت له : إننى صحفى ، وإنه يهمنى بطبيعة الحال أن أعرف أين أنا؟ وهل الحرب مرجحة أو محتملة أو بعيدة الوقوع ؟

قال : كل شيء يتوقف على عناد بولندا ، أو قل عناد الإنجليز .

وسكت لحظة ثم قال : هناك مسائل يجب تصفيتها حالا ، وأنا أعلم أن حكومتنا قد طلبت رداً نهائياً من حكومة بولندا ، وأمهلتها إلى يوم ١٥ .. فإذا لم يجئ الرد موافقاً ...

وسكت مرة أخرى .

قلت : ماذا ؟

قال : سوف تدخل جنودنا مدينة دانتزج ، ثم ننتظر الخطوة الثانية من بولندا .

قلت : بولندا أعلنت أنها لن تتساهل فى حقوقها فى المدينة الحرة ، وأنها ستدافع عنها بالسلاح .

قال : إذن تكون الحرب .

وأوصلنى إلى الفندق وشكرته وافترقنا .

* * *

كانت هذه هى الخطة المرسومة .. التحرش ببولندا وإعلان الحرب ، وكان الموعد المقرر ١٧ أغسطس ، فماذا حدث حتى تأخر قيام الحرب أسبوعين ؟

هنا حلقة مفقودة . والذى سأقوله الآن مبنى على الحدس والاستنتاج .

فلنعد بالذاكرة إلى منتصف أغسطس ، ومقابلات فون روبنتروب مع الكونت شيانو فى سالزبورج . ثم ذهابهما معاً لمقابلة هتلر فى برختسجادن .

ما الذى دعا إلى اجتماع وزير خارجية الريخ بوزير خارجية إيطاليا فى ذلك الموعد : وهو الموعد الذى كان معروفاً لدى أهل العلم فى برلين بأنه موعد التحرش ببولندا وإعلان الحرب ؟

هل تدخلت إيطاليا وسعت عند هتلر لإقناعه بالعدول عن إشعال نار الحرب ريثما تبذل مساعى أخرى لدى إنجلترا وفرنسا وبولندا من أجل الوصول إلى اتفاق ؟

هل كانت ألمانيا تعتمد على دخول إيطاليا إلى جانبها فوراً إذا ما قامت الحرب ، فلما أزفت الساعة ذهب الكونت شيانو ليبلغ حليفتهم ألمانيا خبر عدول إيطاليا عن هذه المغامرة ، ومن هنا اضطرت ألمانيا إلى تأجيل الحرب ... ثم ولت وجهها شطر روسيا لكى تعقد معها اتفاقاً يعوض عليها ما خسرته بوقوف إيطاليا على الحياد ، ويعطى حكومة النازى نصراً معنويـًّا يشد من عزائم رعايا الريخ ؟

هذه أسئلة وألغاز سوف يكشف سرها يوم تنتهى الحرب .. !

لقد عشنا فى التاريخ عشرة أيام

كنا فى (كاب داى) على مقربة من مونت كارلو حين أعلنت الصحف أن ألمانيا قد قذفت العالم بهذه المفاجأة العجيبة ، وهى ميثاق عدم الاعتداء الذى عقدته مع حكومة السوفييت .

وكانت مفاجأة غير سارة ، كما أسماها مستر تشمبرلين ، ذلك لأن العالم أدرك يومها أن العامل الأكبر الذى يجعل ألمانيا تتردد فى غزو بولندا قد زال . وبعد تنحى روسيا أصبحت بولندا وحيدة وجهاً لوجه أمام ألمانيا .

تكهرب الجو ولمعت أول شرارة فى أفق الحرب .

وبين صباح وصباح : خلت فنادق مونت كارلو من نصف الزائرين .

وكان معنا فتاة إنجليزية صديقة كانت قدمت معنا إلى « الشاطئ اللازوردى » لتمضى أسبوعاً بين حمامات البحر ومائدة الروليت .

قامت تحزم حقائبها استعداداً للسفر وهى تقول إن الحرب واقعة لا محالة فى ظرف أسبوع .

ولم أجد أنا ما أقوله لأنى كنت أعلم مما سمعته بنفسى فى برلين أن الحرب حقيقة واقعة لا محالة ، وفى وقت أقرب مما يظن الناس .

لكن صديقنا « على » فتح وجهه بابتسامته العريضة التى تثير الأعصاب وقال للفتاة ساخراً : أنت خائفة ؟ لقد خانك البرود السكسونى المشهود !

قالت الفتاة : سوف ترى .. يا مغفل ..

وقال « على » : إن المعاهدة الإنجليزية المصرية لم تنص على أى حق لرعايا الطرف الأول فى إهانة رعايا الطرف الثانى .

وقلت أنا : ليس فى الأمر إهانة ، وإن « دافنى » لم تقرر سوى حقيقة قد اتفقنا عليها من زمن طويل .

وأسرعت إلى الباب قبل أن تتالى يد على . وهى أشبه بالمقلاع أو المخلاب .

وذهبت إلى محل «كوك» لأحجز مكاناً لصديقتى «دافنى» على القطار الأزرق الذى يغادر مونت كارلو رأساً إلى باريس . فإذا « بكوك » يعج بخليط من مختلف الشعوب ، وكل واحد يحاول أن يجد له مقعداً فى القطار أو الطيارة عائداً إلى لندن أو باريس وكانت هذه أول دلالة على خطورة الحالة ، وعلى أن المجموع أو الجمهور أرهف حساً من الأفراد .

وطلبت من الموظف مقعداً بالقطار وسريراً للنوم من مونت كارلو إلى باريس ، ومقعداً بالطيارة من باريس إلى لندن .

وقال الموظف دون أن يرفع رأسه : إنى متفائل أكثر من اللزوم .... فإن جميع مقاعد القطار محجوزة ابتداء من اليوم والأيام التالية لمدة أسبوع .

ولكنى أعرف موظفى « كوك » من تجاربى السابقة وطول المران .

[صمدت فى موقفى ، وظللت أعيد عليه الكرة تارة بالإنجليزية وتارة بالفرنسية وتارة بلغة ازدحمت فيها الإيطالية مع العربية مع ألفاظ ألمانية .. وأكرر ما سبق أن قلته ، وأبتدئ من حيث انتهيت ، ثم أعود وأبدأ من النهاية راجعاً إلى الوراء .

ورفع الرجل أخيراً رأسه . وقد تخاذلت قواه ، وقال بصوت ضعيف : كيف السبيل إلى الخلاص منك ؟

قلت : بأن تعطيني ما أطلب ..

وزحلقت برشاقة ورقة بمائة فرنك كانت بيدى تحت الأوراق المكدسة أمامه . وهنا تلاشت قواه تماماً ، وقال : فليكن . ولكن ... سرير للنوم مستحيل ، لأن جميع أسرة النوم محجوزة لمدة أسبوعين ، ولو حضر برنس موناكو نفسه أو مسيو دلابيه لما استطاع أن يجد الآن سريراً واحداً للنوم !

وهكذا كان . وودعنا فى نفس اليوم صديقتى « دافنى » على محطة مونت كارلو ، وقد حملت أنا وصديقى أحمد الألفى عطية حقائبها بأنفسنا لأن حمالى المحطة ، وعددهم عشرة ، عجزوا عن أن يأتوا بالمعجزات ويحملوا حقائب خمسمائة مسافر على الأقل كانوا مسافرين بالقطار نفسه ..

وتحرك القطار ، ولوحت « دافنى » بيدها وهى تقول لنا نحن حلفاء إنجلترا : إلى الملتقى فى برلين .

* * *

عدنا إلى كاب داى ، كنا قد غادرناها منذ ساعة واحدة ..

وفى هذه الساعة الواحدة كانت المدافع الرشاشة الفرنسية قد نصبت على قمم المرتفعات القائمة على جانبى الطريق من مونت كارلو إلى كاب داى . ووقف حول كل مدفع جندى فرنسى ، وجنديان من جنود السنغال أو الجيش الأسود — كما يسميه الفرنسيون — استعداداً لأية غارة تجىء من ناحية إيطاليا .

وكانت هذه هى الدلالة الثانية على خطورة الحالة ، وعلى أن الحوادث تسير بأسرع من عقرب الثوانى إلى حرب الدمار .

إلى مرسيليا :

واستقر رأينا على مغادرة كاب داى إلى مرسيليا ، لكى نغادر أوربا إلى مصر على الباخرة النيل . ووضعنا حقائبنا فوق سيارة صديقنا أحمد الألفى ، وتحرك الركب من كاب داى ..

وعلى طول الطريق من كاب داى إلى مرسيليا ، أو الكورنيش المشهور ، كنا بين وقت وآخر نقف جانباً لكى نفسح الطريق للجنود ومعدات الحرب والقتال التى كانت قادمة من الغرب إلى الشرق .. أى إلى الحدود الفرنسية الإيطالية .

وأقبل المساء . وكنا نمر بالقرى والبلدان الفرنسية الواقعة على طول امتداد الكورنيش فإذا بها مظلمة تماماً إلا من المصابيح الباهتة الزرقاء ، وكنا نرى الأهالى وقد تجمعوا أمام دورهم يسألون بعضهم بعضاً : هل من جديد .. أو يصيحون بسيارة مارة هل سمع أصحابها شيئاً عن إعلان الحرب ؟

جو فزع .. وأعصاب متوترة .. وظلام مقبض للنفوس ..
إذن هى الحرب !

فلسفة الموت :

قال صديقى أحمد وهو يدور حول منعرج خطر من تعاريج الكورنيش – وكان هو الذى يتولى قيادة السيارة ، قال : الرب واحد والعمر واحد وكل نفس ذائقة الموت !

قلت له : أعرف ذلك ، ولكنى أعارض بشدة فى أن أذوق الموت مهشماً على الصخور أو أسقط فى البحر من ارتفاع مائة متر أو تزيد ..

فنرجو أن تمشى على مهلك شوية .

دمث لأنه كان يقود السيارة بسرعة خمسين كيلومتراً فى ظلام دامس وبين تعاريج الكورنيش . وهى أشد خطراً من تعاريج لبنان المعروفة باسم الكيعان .

النوم على الأرض :

ودخلنا مرسيليا ، وكانت الساعة التاسعة مساء ، والمدينة كلها غارقة فى ظلام . ولم تكن المصابيح الزرقاء ونورها الضعيف حيث يقع إلا لتزيد فى حدة الظلام .

وسرنا فى شارع الكنابير المشهور .. وبعد دقائق كادت السيارة تعانق قاطرة ترام . ولكن الله سلّم .

وانحرفنا إلى اليمين .. وإذا بهتاف حاد من اللعنات والشتائم باللغة الفرنسية الفصحى ، وهى أفصح اللغات فى السباب . ذلك لأن السيد أحمد صعد بالسيارة دون أن يدرى إلى الرصيف أمام قهوة كانت تعجّ بالزبائن الذين لم يرهم فى الظلام .

ومضينا نبحث عن فندق ننام فيه .

وكل من سافر إلى أوربا فى ذلك الصيف ، وكتبت له السلامة وعاد قد كتب أو تحدث ووصف مرسيليا فى تلك الأيام ، وكيف أنها كانت مزدحمة بألوف الراغبين فى السفر ، وكيف أن الفنادق كانت تعج بالنازلين حتى لم يبق فيها موضع لقدم .

لا حاجة إذن لوصف ما لاقيناه فى ذلك المساء .. ويكفى أن أقول إنه بعد ثلاث ساعات فى البحث والرشوة والرجاء استطعنا أن نجد فندقاً له بين فنادق مرسيليا نفس المقام الذى يتمتع به فندق الكلوب المصرى ،

فى حىّ سيدنا الحسين ، بين فنادق العاصمة ، وقد رضى الفندق المذكور أن ينزل صديقاى أحمد وعلى ضيوفاً عليه.. على أن يناما على أرضية غرفة الجلوس فى الدور الأرضى فى مقابل خمسين فرنكاً لكل منهما فقط لاغير.

وكلاهما — أحمد وعلى — يتمتعان بثروة طيبة من اللحم والشحم تضعهما فى صف ما فوق الثمانين كيلو جراماً ، فلا خوف عليهما . وقد حباهما الخالق بهذه « المرتبة » اللينة ، من النوم على بساط من تحته بلاط .

أما أنا — وعظام جنبى تكاد تخرق السترة — فماذا أفعل؟ وكيف أنام على الأرض ؟

وأشفق علىّ خادم فى الفندق وأخذنى إلى « البنسيون » الذى يقيم فيه ، ونزلت لى صاحبة البنسيون عن غرفتها فى تلك الليلة فى مقابل مبلغ يكفى لإيجار شقة فاخرة فى فندق جورج الخامس أو فندق كريون .

شكر واجب :

وانطلقنا فى الصباح فى شوارع مرسيليا ، وكنا نقابل بين خطوة وأخرى مصريين كثيرين نعرفهم أولا نعرفهم ، لا يهمّ .. كنا نقف ونتحدث معاً ، وكل غريب للغريب نسيب ، كما قال الشاعر !

هل وصلت الباخرة النيل ؟ وهل تسافر فى موعدها أو تقدم موعد سفرها ؟ وهل فيها أماكن خالية ؟ وهل .. وهل .. ألف هل وهل ؛ وكل واحدة منها تحطم الأعصاب !

وهنا — وعمرى ما كنت مداحاً ولا صاحب ربابة يحرق البخور — هنا يسعدنى قضاء واجب من الشكر والاعتراف بالجميل لمدحت يكن وطلعت حرب وتوفيق دوس .

لست أدرى ماذا كان يحدث لمئات المصريين الذين عادوا على الباخرة النيل لولا السادة المذكورون . لقد قامت صعوبات كثيرة ذللوها كلها واحدة بعد الأخرى ... صعوبة فى توفير أكبر عدد ممكن من الأسرة لأكبر عدد ممكن من المسافرين ... وصعوبة فى توفير الزاد والمؤن الكافية لرحلة الباخرة .. وصعوبة فى إقناع السلطات الحربية من أجل الحصول على إذن بسفر الباخرة من مرسيليا ، بعد أن قررت الحكومتان الإنجليزية والفرنسية إقفال البحر المتوسط وبحر البلطيق ... وصعوبة فى إقناع بعض موظفى الباخرة من الإيطاليين بالسفر مع الباخرة ، وكانوا يرفضون فى أول الأمر بحجة أن الباخرة قد لا تصل إلى مصر إلا وهى فى حالة حرب مع إيطاليا ، وهناك تعتقلهم الحكومة المصرية بصفتهم من رعايا الأعداء ...

وصعوبات غير هذه وتلك ، ذللوها كلها ، حتى استطاعت الباخرة النيل أن تقوم من مرسيليا ، وأن تعود إلى أرض الوطن بمئات من المواطنين .

دوس (باشا) يشترى اللحم والخضار :

ولقد ذهب توفيق دوس (باشا) بنفسه يبتاع للباخرة ولهذا العدد الكبير من المسافرين ما يكفى من اللحم والسمك والدجاج والفاكهة والخضار .. وكانت مهمة شاقة أن تجد فى سوق مرسيليا ، وفى يوم واحد ، هذه الكمية من الطعام التى تكفى لجيش صغير .

وذهب (سعادته) كذلك يبتاع عدداً من «المراتب» المحشوة بالقطن ، لينام عليها العدد الأكبر من ركاب الباخرة الذين دبرت لهم أماكن للنوم فى قاعة الجلوس وقاعة التدخين وغرفة المكتبة وحديقة الشتاء .

وقيل له ليست هناك مراتب جاهزة للبيع .

قال : اصنعوها .

قالوا : نعم . ولكن المرتبة تتكلف تسعين فرنكاً . على أن نسلمها لكم بعد ثلاثة أيام .

قال : ولكن الباخرة تسافر غداً .

قالوا : إذن يكون سعر المرتبة الواحدة ١٥٠ فرنكاً .

قال : فليكن ..

وهكذا كان .

راقصة وكلبها :

ووقف دوس (باشا) عند أسفل سلم الباخرة يراقب بنفسه قدوم المسافرين ، ويعطى التعليمات .

وأقبلت الراقصة أمينة محمد وهى تبكى وتنوح وترجو (الباشا) أن يساعدها .

سألها : ما خبرها ؟

قالت : عايزين منى تذكرة ثانية ولا معيش فلوس .

ــ تذكرة ثانية علشان إيه ؟

ــ عشان الكلب .. الكلب بتاعى ..

ــ كلبك .. احنا فى إيه ولا فى إيه ..

ــ فى عرضك (يا باشا) .. دنا باحبه قوى ..

ولم يستطع دوس (باشا) أن يتخلص من أمينة محمد إلا بعد أن أعفى الكلب المحبوب من أجرة السفر على الباخرة النيل .

العاصفة :

وأقلعت بنا الباخرة فى الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الأربعاء .

وكان القبطان وهو إنجليزى يحمل تعليمات سرية مختومة من البحرية البريطانية على ألا يفضها إلا بعد أن يبتعد عن مرسيليا بمسافة ٣٠ ميلا .

وقد كان . وانحرفت الباخرة عن الطريق المعروف ، وسارت طبقاً للتعليمات فى طريق آخر .

وفى مساء اليوم الثانى — الخميس ٣١ أغسطس — رأينا فى الأفق إلى يمين الباخرة أنوار الشاطئ التونسى وهى تومض وتختفى .

وفجأة اكفهر الجو ، ومزق سكون الليل رعد عريض عميق .. واصطبغت صفحة الأفق نحو المغرب بلون الدم .

وقالت سيدة مصرية كانت إلى جانبى : سحب الدم علامة الحرب !

وهبت ريح ثقيلة حارة فوق سطح الماء .. قصف الرعد .. وومض البرق .. وانفتحت أفواه القرب بمطر غزير ..

وكانت ليلة . ولا أحسب أن أحداً من ركاب الباخرة غمض له فيها جفن .

وفى ساعات الصباح الأولى ، كانت العاصفة قد بلغت أشدها ، وكانت سرعة الريح مائة ميل .. وتولى القبطان قيادة الباخرة بنفسه . وقد اضطرت الباخرة ثلاث مرات إلى الوقوف .. وكانت فى كل مرة منها تقف نحو نصف ساعة حتى تهدأ الريح .

وكانت هذه العاصفة فى ليلة الجمعة أول سبتمبر .. أى أول أيام الحرب ، كأنما شاءت الطبيعة أن تشارك العالم فى إعلان المصاب .

ومضينا يوم الجمعة ونحن فى هم وفزع ما بين الحرب والبحر ، وكم

من واحد بيننا تسلل خفية إلى غرفته . وأقفل وراءه الباب . وجرب كيف يلبس حزام النجاة استعداداً لطوارئ .. طوارئ البحر وطوارئ الغواصات .

ومررت بصديقي عبد الحميد عبد الحق ، وكان مستلقياً على كرسي طويل .. وقال الصديق : يارب .. حنلاقيها منين ولا منين .. من البحر والا من الحرب !

غريق :

وبينما أنا واقف أتحدث مع سعادة فؤاد أباظة (باشا) والأستاذ محمود أبو الفتح ، وقد استندنا إلى حاجز الباخرة المطل على البحر ، أبصرنا جسماً ما فوق سطح الماء ، وقد ركزت فيه عمودياً قطعة من الخيزران ربطت بطرفها قطعة من القماش الأبيض .

ولم نتبين جيداً لضعف النور ما هو هذا الجسم العائم الذى ترفرف فوقه قطعة القماش البيضاء .

ولكن المعنى كان أوضح من أن نستطيع تجاهله .

هذه الراية البيضاء المربوطة إلى قطعة الخيزران إنما قصد منها لفت أنظار السفن .. إلى إنقاذ إنسان ما لعله الجسم الذى لم نتبينه جيداً والذى كان غائصاً فى الماء .

ووجمنا .. وقلت أنا لعله صياد مسكين — وكنا على مقربة من مالطة — داهمته عاصفة الصباح ، فقلبت زورقه وحاول هو النجاة .. فربط نفسه إلى قطعة من الخشب ، ورفع منديله الأبيض ، ليلفت إليه نظر سفينة عابرة .

وقال أحد الصديقين بصوت لا يكاد يسمع : أو لعله أحد المسافرين

على الباخرة كذا التى أقلعت قبلنا من مرسيليا بيوم واحد . لا تنسوا أن فى البحر الأبيض ٨٠ غواصه ألمانية !

* * *

نعم . . لقد عشنا أياماً على ظهر الباخرة كان فيها تاريخ العالم يصهر فى أتون . . وقد عشنا نحن كل دقيقة وكل ساعة فى ذلك التاريخ .

سباق « الكرستا » :

كان أمس ختام سباق الكرستا للحصول على كأس إيطاليا . وكنت لقيت هنا منذ نحو ثلاثة أسابيع صديقى كراموند أحد أبطال الكرستا ... وقلت يومئذ بين الجد والهزل : ما أظنك تنوى دخول سباق الكرستا هذا العام ؟ ..

قال : بلى ... ولهذا بكرت بالحضور لكى أتمرن .

قلت مازحاً : وفى سنك هذه أيها العجوز ؟ !

وضحكنا ... ثم راهننى على زجاجة من الشمبانيا — الفرنسية لا السويسرية . وهذه أشبه بالبيرة المصرية إذا قورنت بالبيرة الألمانية — وكان الرهان على أنه سيفوز بالكأس والجائزة الأولى .

قلت : وإذا لم تفز إلا بالجائزة الثانية ؟

وهنا قالت مسز كراموند — وهى استرالية : إذن تكون زجاجة شمبانيا سويسرية والله فى عوننا ! ..

وكان كراموند تقابل لأول مرة مع هذه الأسترالية الفاتنة هنا فى سان موريتز منذ عشر سنوات . والفتاة من أسرة أسترالية واسعة الثراء . أما هو فقد كان يومها فى مستهل كفاح الحياة إذ كان يعمل — كموظف أجير — عند أحد رجال الأعمال فى حى المال « السيتى » فى لندن ، ولكنه كان — من يومه — رياضياً من الطراز الأول .

وأحبته الفتاة . وأحبها هو .. وذات يوم تبادلا أول قبلة بين الثلوج ..
وما ألذ القبلة بين حقول الثلج والجليد الناصعة البياض .
تطبع القبلة .. وأنت تلهث !
وترفع شفتيك .. وأنت تلهث !
هذا والبخار ينساب من بين الشفتين !
أهى حرارة القبلة تذوب بخاراً فى هذا الزمهرير ؟
واتفق الاثنان على الزواج ..

وقامت قيامة الأسرة الأسترالية الواسعة الثراء ، وغضب الأب ، وبكت الأم .. وقال الأخ : «ومن يكون هذا الإنجليزى الذى لا هو فى العير ولا فى النفير ؟ »

وأصرت الفتاة على أن تتزوج ممن أحبت ...

وهددها الأب بأنه لن يساعدها ببنس (حوالى ٥ مليمات) .
وقالت الفتاة : لا بأس ...

ولم يمض أسبوع إلا وقد تم الزواج بين الاثنين .

وسافرت أسرة الفتاة عائدة إلى أستراليا وهى تستنزل اللعنات على رأس كراموند ، ورأس الفتاة ، ورأس سان موريتز !

وهما اليوم من أسعد الأزواج ، وقد شق كراموند طريقه فى الحياة ، وأصبح ممن يشار إليهم فى حى المال والأعمال .

وسألتها مازحاً : وما موقف « القبيلة » منكما الآن ؟
وقصدت « بالقبيلة » أسرتها .

قالت : أوه لقد تصالحنا منذ سنوات . وقد زارتنى أمى وشقيقى فى الربيع الماضى فى لندن .

رياضة صعبة :

وأمس – كما قلت – كان ختام السباق ... والسباق يجرى خارج سان موريتز على طول الطريق إلى بلدة شلرنيا . وكنت على موعد مع كراموند أن نلتقى الظهر تماماً فى بار سوفريتا ، لكى نحقق الرهان ، وأينا الذى يقدم الشمبانيا لصاحبه ؟ وهل تكون الشمبانيا فرنسية أو سويسرية ؟

وأقبل كراموند وزوجته وعلى فم كل منهما ابتسامة عريضة ، ولوح بذراعه وصاح – وهو مايزال عند الباب : فرنسية ... وناشفة جـــداً !

لقد فاز بالكأس والجائزة الأولى ، مع أن سباق الكرستا من أعنف رياضات الثلج وأشدها خطراً . وكراموند قد جاوز الأربعين ، ولو أن رأسه مازال أشبه بغابة كثيفة من الشعر الكستنائى اللون ، وليس فيه شعرة واحدة بيضاء .

وأقبل « جو » أو « يوسف » البارمان يصب الشمبانيا فى أقداحنا .

وقال كراموند : مسكين «جيمى» لقد كان سيئ الحظ حقاً . وكان هو الفائز الأول ولاشك حتى الثلث الأخير من السباق .. ولكن – ولا أحد يعرف كيف وقع فى هذه الغلطة وهو الرياضى المجرب – أفلتت منه قيادة الزورق .. واصطدم زورقه – وكانت السرعة نحو مائة ميل تقريباً – بجدار مجرى السباق. ثم ارتد الزورق وقفز فوق الجدار الآخر .. قاذفاً بالمسكين جيمى بين الصخور .

قلت : وهل إصابته خطيرة ؟

قال : هناك ثقب واسع . . نحو بوصة ونصف ، فى جبهته . هذا بخلاف كسر هنا وكسر هناك .. شيرى يو !

ورفع كأسه يشرب !

هكذا ! وهذا هو برود الرياضى المطبوع !

هذه الأخطار ، وهذه الجروح المميتة ، وهذه العظام المحطمة .. كلها جزء أو ضرورة من ضرورات الرياضة !

وقد يطول الحديث إذا أردت شرح كل نوع من أنواع رياضة الثلج ، وأهمها وأشهرها السكى ، والسكاتنج والهوكى . والأخيران معروفان فى مصر ، والفرق بينهما وبين شبيهيهما هنا أنهما يزاولان فى مصر على قباقيب ذات ٤ عجلات وعلى الأسفلت ، أما هنا فيزاولان على الجليد الممهد ، والقبقاب ليس فيه عجلات ، وإنما فيه حد من المعدن يشقه بالطول من الرأس إلى المؤخرة . وعلى المرء أن يحفظ توازنه فوق الجليد وهو يتزحلق على هذين الحدين الرفيعين ، وكأنه يسير على الصراط . وهناك أيضاً البوب والكيرلنج والكرستا ..

والكرستا — كما قدمت — تزاول فى شبه زوارق صغيرة من الخشب والمعدن ، ولكنها زوارق مسطحة القاع ، وقد ركب جسم الزورق فوق عرضين من الخشب الأملس ، وعلى هذين العرضين من الخشب يتزحلق الزورق فى مجرى الجليد .

وقد يجلس فى الزورق شخص واحد ، وقد يجلس فيه شخصان أو أكثر حسب شروط السباق .

هذه هى رياضة الكرستا باختصار .

تاريخ رياضات الثلج :

وقد يدهش القارئ حين يعلم أنه لم يكن هناك شىء ما من رياضات الثلج هذه فى سويسرا منذ سبعين عاماً ، مع أن رياضة الثلوج هذه

تمثل اليوم نحو ربع إيراد سويسرا القومى بسبب عشرات الألوف من السائحين الذين يفدون كل شتاء على مشاتى سويسرا ليزاولوا هذه الرياضة .

حدث فى عام ١٨٨٠ أن إنجليزيًّا اسمه الكولونيل نابيير كان يزور النرويج أثناء الشتاء من أجل عمل تجارى ما . وهناك رأى باعة الأسماك يهبطون من قمة إلى قمة ، ويسيرون من شارع إلى شارع فى القرى وقد ربطوا تحت أقدامهم عروضاً ضيقة طويلة من الخشب .. يتزحلقون بها حتى لا تغوص أقدامهم فى الثلوج ، وهم ينادون ويدقون أبواب البيوت والأكواخ عارضين بضاعتهم .. الأسماك !

وخطر للكولونيل نابيير أن هذه فكرة جديدة ، وأنها تكون رياضة رائعة إذا استطاع بهذين العرضين الضيقين الطويلين من الخشب — أن يهبط من قمم الجبال إلى السفح والوادى .

وفى الشتاء التالى ، قدم نابيير وخادمه ونزلا فى بلدة دافوس ، وهى على مسافة نحو ساعتين من سان موريتز .

وهناك رأى السويسرون إنجليزيًّا مجنوناً يحمل هو وخادمه عروضاً طويلة ضيقة من الخشب على أكتافهما ، ثم يتسلقان الجبل ، وهناك يربطان هذه العروض الخشبية تحت أقدامهما ، وينحدران عليها بسرعة هائلة إلى الوادى .. ثم يعاودان الكرة من جديد !

ولما كان السويسرون قوماً عمليين فقد هزوا أكتافهم يومها وقالوا : « مجانين » . لأنهم لم يدروا معنى ولا فائدة من هذا العمل الجنونى .

ولكن الكولونيل نابيير عاد فى الشتاء التالى مع نفر عديد من أصدقائه « المجانين » وراح الجميع يزاولون هذه الرياضة « السخيفة » .

وأخذ عدد المجانين يزداد من عام إلى عام ... حتى ازدحم بهم الفندق الوحيد فى بلدة دافوس . وهنا خطر لأهل سويسرا العمليين

أن هذه الرياضة المجنونة ليست سخيفة إلى هذا الحد — على الأقل بالنسبة لهم . إذ أن فيها آفاقاً واسعة للتجارة والربح .

وراح أهل سويسرا يشيدون الفنادق الفخمة فى مشاتى الجبال ويعلنون بكل وسائل الإعلان والدعاية عن الرياضة «المجنونة» السكى ..

وهكذا نشأت رياضة السكى . ومن بعدها تفنن «مجانين» آخرون فى ابتكار رياضات أخرى . مثل الكرستا والكيرانج .. إلخ .

وقال لى كراموند أمس . ونحن نتبادل المعلومات عن رياضة الثلج إن «السكى» يزاول على الرمال الناعمة فى بعض أنحاء أفريقيا الفرنسية . وإنه شاهد بنفسه بعض الضباط الفرنسيين ينحدرون بالسكى فى تلال مراكش الرملية .

وابتسمت أنا وقلت : عندنا فى مصر أنواع عديدة من التلال الرملية .. فهل تزور مصر وتنشىء فيها نادياً لرياضة السكى ؟

قال : وهل يجد المشروع التأييد الكافى ؟ ...

قلت : بلا شك ، فإن المجانين فى مصر كثيرون ! ...

اللادى ليفر هيوم :

وتقيم هنا منذ أيام اللادى ليفر هيوم ومعها بناتها وعددهن خمس وبنت شقيقتها وهى أجمل الجميع واسمها فيفيان .

وتجلس اللادى هيوم فى صدر المجلس وحولها الفتيات الست . وليس معهن رجل واحد ...

وقد أطلقت شلتنا عليهن لقب « الكتاكيت » !

واللادى من وزن ثقيل الثقيل ، وهى تشبه صديقنا المحترم إسحاق حلمى إلى حد كبير ..والفرق بين الاثنين أن قامتها تبلغ نصف طول قامة

إسحاق حلمى ! ولكن الوزن واحد !

ويظهر أن أحدهم أشار عليها بممارسة رياضة السكى لكى تنقص وزنها ... وعملت اللادى بالنصيحة .. وخرجت إلى شلرنيا تتمرن ... وبينما هى تجر نفسها وتحاول الانحدار من قمة هضبة .. حسب التعليمات ، انحدرت فجأة وبسرعة نحو الطريق الذى يشقه خط السكة الحديدية .

واصطدم « السكى » بالقضبان ، وانكفأت اللادى هيوم على جنبها ..

وأقبل — فى اللحظة نفسها — القطار وهو يصفر صفيراً متوالياً شديداً ..

واستطاعت اللادى ليفرهيوم — يادوبك ! — أن تدحرج نفسها بعيداً عن القضبان ! واحتفل « الكتاكيت » ليلتها بنجاة اللادى ...

وقالت فيفيان وهى تروى لى القصة : إنه لمن حسن الحظ حقيقة أنها نجت .. وإلا كانت مصيبة !

قلت : نعم ... كانت مصيبة تفوق فى هولها مصيبة سقوط الطائرة الأمريكية فى شانون (إيرلندا) !

وقطبت حاجبيها وقالت : لم أفهم .. ماذا تعنى ؟

قلت باسما — وأنا لا أستطيع مغالبة لسانى الطويل — : تصورى ماذا كان يحدث للقطار وراكبيه لو أن اللادى خالتك لم تتمكن من دحرجة نفسها بعيداً عن القضبان !

وانصرفت فيفيان غاضبة ...

ولكنى واثق من أننى لمحت ابتسامة خاطفة فى عينيها وهى توليني ظهرها غاضبة !

الكونت مانسفيلد :

وهبط علينا منذ بضعة أيام الكونت مانسفيلد وزوجته ... وسألتنى فى أثناء السهرة مسز فان جرشن الهولندية : هل تعرف الكونت مانسفيلد ؟

قلت : لا ... من هو ؟

قالت : صحفى ولا تعرف الكونت مانسفيلد ؟

واعترفت لها بأنى صحفى خائب فى عالم الأخبار والشخصيات ...

وأخيراً ... هو فى الحقيقة البرنس فرديك هوهنزلرن أصغر أنجال ولى عهد ألمانيا السابق ، وكان فى إنجلترا يوم نشبت الحرب ، ولقد رفض أن يعود إلى ألمانيا ، وكان فى وسعه أن يعود إلى وطنه مع رجال السلك السياسى الألمانى ، ولكنه آثر البقاء فى إنجلترا ...

وقد اعتقل طول مدة الحرب ...

وأخيراً حصل على الرعوية البريطانية ، ونبذ لقبه واسمه الأول . واتخذ لنفسه لقب « الكونت مانسفيلد » .

وهو متزوج الآن من إحدى فتيات أسرة جنيس صاحبة معامل البيرة المشهورة ، وكان من أركان الأسرة المرحوم اللورد موين وزير الدولة البريطانى فى الشرق الأوسط الذى اغتاله أمام داره فى الزمالك أحد الإرهابيين الصهيونيين فى أواخر عام ١٩٤٤ .

والكونت مانسفيلد شاب خجول متواضع قليل الكلام . حاولت مرة أن أجره إلى الكلام فى السياسة ، وعن مستقبل ألمانيا ، ولكنه أفهمنى بعبارة مؤدبة جداً أن الحديث عن ألمانيا يؤلمه !

هل هضمت معدته فصى الزمرد والألماس ؟!

بين اللاجئين أو المهاجرين فى هذه البلدة يهودى ألمانى استطاع الخروج من ألمانيا فى عام ١٩٣٨ ، أى منذ تسع سنوات .

ومنذ تسع سنوات وهو يطوف بأطباء سويسرا والإخصائيين فى الأشعة ولهذا كله قصة طريفة :

كان اليهودى المذكور « بقالا » على شىء من سعة الرزق ، وكان يقيم فى بلدة « أوبرلنجن » . وقد استطاع أن يصفى تجارته — وكان البقالة — سراً بالتدريج وأن يشترى بالمال الذى وصل عليه فصوصاً من الأحجار الكريمة . وعندما كان موعد مغادرته — أو هربه — من ألمانيا بلع الفصوص فى جوفه ...

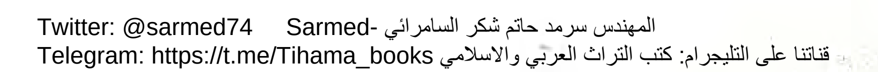
وخرج وليس معه — فى الظاهر — إلا ما سمحت به قوانين النازيين !

ووصل الرجل إلى سويسرا — هنا فى كرويز لنجز — ولجأ إلى وسائل معروفة (لا حاجة للخوض فى تفاصيلها !) لكى يفرغ ما فى جوفه !

وتساقطت فى الوعاء الذى كان قد أعده ... فصوص من الألماس والزمرد وبعض اللآلئ ... وعدّها الرجل فوجدها ناقصة ..

وأعاد الكرة على جوفه ، وتساقطت فصوص أخرى . وعدّها الرجل فوجدها تكمل العدد إلا . . فصين ناقصين وهما أغلى الفصوص قيمة . وأحدهما ماسة صغيرة وردية اللون — وهذا النوع من أغلى أنواع الماس — والفص الآخر من الزمرد . وعبثاً حاول الرجل إخراج هذين الفصين من جوفه مستعملا الوسائل « المسهلة » المعروفة كلها .

وذهب إلى أحد أطباء الأشعة ، واستخرج صورة لمعدته ومصارينه فلم يظهر لا فى هذه ولا فى تلك أثر للفصين التائهين !



ومن يومها والرجل يطوف شهراً بعد شهر بأطباء سويسرا ... ولكن عبثاً ، ومع ذلك لم يفقد الأمل .

ولقد أشاروا عليه بإجراء عملية جراحية للبحث عن الفصين فى جدران الأمعاء ، ولكنه رفض وقال : قد أموت من جراء العملية ... ولكن لورثتى الحق بعد وفاتى أن يفتحوا بطنى . ويشرحوا جثتى . ويبحثوا عن الفصين .. ولكننى لن أعرض نفسى للموت إكراماً لهم !

ويروى عنه أنه قال مرة ما معناه : المصيبة أن لى معدة مثل معدة النعام تهضم الحجر ! وأخشى أن تكون معدتى قد هضمت فصى الزمرد والماس !



اليهودى والماسة

فرقتهم الحرب . . وجمعتهم الأحزان !

عرفت فى الشتاء الماضى فى أثناء إقامتى فى سان موريتز (سويسرا) ثلاث سيدات ...

الأولى ألمانية قتل زوجها فى أثناء الحرب فى حادثة طائرة ...

والثانية إنجليزية قتل زوجها فى أثناء إحدى غارات الطائرات الألمانية فوق لندن ...

والثالثة هولندية اعتقل الألمان زوجها وأرسلوه إلى أحد معسكرات الاعتقال ... وبعد ستة أشهر تلقت زوجته من سلطات الاحتلال الألمانية صندوقاً صغيراً مملوءاً بالرماد !

وأدركت الزوجة أن زوجها مات . وهذا رماد جثته التى أحرقت فى أحد الأفران !

وكانت الإنجليزية تقول لى كلما رأتنى جالساً مع الألمانية : « لا أفهم كيف تستطيع أن تجلس مع هذه المرأة ! ولكن لعل السبب هو أن بلادك لم تدخل الحرب ولم تقاس من فظاعة الألمان الوحوش ! »

وكنت أضحك وأقول إن الحرب انتهت ، وإننا الآن فى عصر السلام والنسيان !

أما الهولندية فكانت تنظر إلى الألمانية شزراً ...

وذات مساء وكنت جالساً مع السيدة الإنجليزية أقبلت علينا السيدة الألمانية وحيتنى .

وقفت أرد التحية ثم قدمتها إلى السيدة الإنجليزية ...

والإنجليز شعب مؤدب ، أو إن شئت فقل « بارد العواطف » يستطيع دائماً أن يغلب أدبه على كل شىء !

ومدت السيدة الإنجليزية يدها تهز يد الألمانية وتحييها التحية المألوفة « هاو دويو دو » أى كيف حالك !

ورأيت الفرصة سانحة فاستأذنت لحظة .

وعدت ومعى السيدة الهولندية مدام فان جرشن . وقدمتها للألمانية فراوسيتا بوهلن فون كروب ...

وكسر الثلج كما يقول المثل الإنجليزى ، وزال حرج اللحظات الأولى . ورفعت الكلفة ..

ووصفت مسز ستاتارد الإنجليزية كيف قتل زوجها بشظية قنبلة ألمانية فى أثناء إحدى الغارات .

وتحدثت الألمانية عن زوجها الشاب — وكانا قد تزوجا قبيل الحرب بأشهر معدودات — وكيف كانت تحبه ، وكيف فقدته فى أول سنة من سنى الحرب ، وكيف سقطت طائرته ...

وتحدثت الهولندية ....

ووجدت نفسى بين ثلاث سيدات يبكين ، ويتبادلن العزاء !

وقالت الإنجليزية : ألا ما أسخف الحرب !!

ذكرت هذه الجلسة وأنا أقرأ أنباء الأسبوع ! وحديث الحرب القادمة على كل منبر وعلى كل لسان !

ألا ما أسخف الحرب !

وما الحرب إلا نار يوقدها القادة وزعماء الشعوب ! الزعماء والقادة الذين يظلون بعيداً عن ميادين القتال فى مأمن من النار والدم والحديد ! أما الأفراد — الرجال والنساء — فلا حيلة لهم إلا التضحية وإلا البكاء !

إن فى مقدور نساء العالم — والنساء وحدهن — أن يتحدن ! ولو اتحدن لاستطعن أن يقضين على الحروب !

ولعل اتحاد النساء أسهل تحقيقاً من اتحاد حكومات الرجال !

مدينة ميكيافلي
تسكر وترقص وتغني !

فلورنسا — مارس ١٩٤٧ :

وصلنا إلى فلورنسا بسلامة الله ! ولأول مرة منذ أسبوع ، أي منذ وطئت قدماي أرض إيطاليا .. شاهدت الشمس وزرقة السماء !

ولي ذكريات في فلورنسا ... وكان ذلك في أواخر مارس ١٩٣٨. وهأنذا أعود إلى فلورنسا في مارس ١٩٤٧ ، أي بعد تسعة أعوام ، وما أسرع مرور الزمن . . . أحياناً ! ثم ما أثقل مرور هذا الزمن في بعض الأحايين على الذي طال صبره حتى نفد أو كاد !

هنا فلورنسا ... مهد الفن الفلورنسي القديم ... في البناء وفي الزخرفة وفي النحت وفي التصوير ... وفي الأزياء ، أزياء الرجال وأزياء النساء .

هنا مهد الأرستقراطية الإيطالية ، أرستقراطية الجمال . وأرستقراطية الشعر وأرستقراطية فنون الحكم ...

هنا قامت أسرات طبعت أسماءها وأعمالها في تاريخ أوربا وتاريخ عالم القرون الوسطى . . أسرة مديتشي وبورجيا وأورسيني وسفورتزا وغيرها . ووزير خارجية إيطاليا اليوم هو سليل الأسرة الأخيرة .

هنا بلد الجمال ، وبلد السحر ، وبلد الشعر ، وبلد الأدب ، وبلد « السموم » ..

السم في العطر ! والسم في الزهر ! والسم في شمة . والسم في قبلة !

والسم فى طى الخطاب أو فى جلد قفاز ... يلمس أحدهما « المحبوب » ويموت ! ..

وفن أو علم السموم هذا برع فيه الفلورنسيون فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . حتى كنت تجد دائماً فى معظم بلاطات ملوك أوربا وأمرائها فى ذلك الحين فلورنسياً يقوم بمهام وظيفة الصيدلى الخاص لصاحب الجلالة أو لصاحب السمو !

ولم تكن مهمة هذا الصيدلى الخاص هى شفاء الناس ! هذا أمر ثانوى ! وإنما كانت فى الواقع مساعدة الملك أو الأمير على الخلاص من خصومه وأعدائه ، وخليلاته أو عشاق هؤلاء الخليلات !

وفى فلورنسا ولد ونشأوترعرع « ميكيافيلى » الذى ترمى به الآن كل سياسة ملتوية .. وكل سياسى يلعب ويدبر مؤمراته فى الظلام ! ... والواقع أن نيكولا ميكيافيلى مظلوم وبرىء من هذا الذى يلصقه به العالم الحديث .

لقد ولد ميكيافيلى فى الثلث الثانى من القرن الخامس عشر ، وكانت جمهورية فلورنسا يومها — وهى البندقية — من أغنى دويلات أوربا بسبب تجارتها الواسعة مع الشرقين الأقصى والأدنى ، وكانت سفنها تجوب البحار ، وكانت خزائنها وخزائن أهليها عامرة بالذهب ..

وكانت تجاورها من الغرب والشمال والجنوب أملاك لويس الثانى عشر ملك فرنسا .. فى حين كان الإسبان يتربصون بها من قواعدهم فى صقلية وفى كالابريا .

وكان هناك غير هؤلاء القائد الطموح النابغة والسياسى الداهية سيزار بورجيا .

وكان كل من هؤلاء يطمع فى فلورنسا وذهبها المكدس فى خزائنها .. واضطرت فلورنسا أن تصانع هؤلاء جميعهم ... وأن تشترى حماية

لويس الثانى عشر بأكياس الذهب ، وأن تضمن تأييد سيزار بورجيا وجيوشه لها بأكداس الذهب ..! وأن تمشى على مهل وحذر فوق حبل مشدود بين الفرنسيين والإسبان !

وفى هذه الفترة من تاريخها ظهر نيكولا ميكيافيلى ، ودخل خدمة « سكرتارية » مجلس الجمهورية فى وظيفة كاتب بسيط . ثم لم يلبث ذكاؤه الخارق أن دفع به إلى الأمام حتى أصبح سفير الجمهورية فى المهام الجسام توفده تارة لمفاوضة ملك فرنسا ... وتارة لمقارعة زميله ونده فى الدهاء سيزار بورجيا ! ..

وسار ميكيافيلى على سياسة استنها لنفسه ، فنجحت وأثمرت أطيب الثمرات .. وهذه هى السياسة التى ضمن قواعدها كتابه « الأمير وأصول الحكم » !

وتتلخص سياسته فى أن الغرائز البشرية واحدة لاتتغير ، بل هى هى فى كل بيئة وكل جيل وكل بلد .. وأن المرء إذا درس التاريخ وحوادثه أمكنه — إذا قامت ظروف مشابهة لظروف سابقة فى سير التاريخ — أمكنه أن يحكم أو يتنبأ مقدماً بأن الذى سوف يحدث هو نفس الذى سبق أن حدث فى تلك الظروف الشبيهة السابقة !

وإن العوامل الحاسمة أو الفاصلة فى هذا كله هى غرائز وطبائع النفوس . ولهذا كان هم ميكيافيلى الأول أن يدرس أخلاق وطباع معاصريه ...

هذه كانت سياسة الرجل ، ولم يكن فيها كما ترى شىء من الالتواء والدس أو اللعب فى الظلام ! بل لقد عرض عليه سيزار بورجيا أن يترك خدمة فلورنسا وأن يدخل فى خدمته .. وعرض عليه المنصب الرفيع واللقب السامى والمرتب الضخم ، ولكن ميكيافيلى رفض وهو يقول : « أنا لا أبيع خدمة وطنى باللقب ولا بالذهب » !

هذا هو ميكيافيلى البرىء المظلوم ! .. وهناك اليوم — وفى مصر عام ١٩٤٧ — سياسيون أحق منه بوصف سياسة الخيانة والغدر . سياسة الالتواء والدس فى الظلام !

ولكن فلورنسا الغنية ... أصبحت فقيرة اليوم فى كل شىء إلا فى الفن وإلا فى الارستقراطية والجمال . . . !

وكانت فلورنسا تعيش قبل الحرب على موسم السياحة . وكان يقصدها آلاف السائحين ، وخصوصاً من الأمريكان والبريطانيين . إلى أن كانت الحرب ، فانقطع مورد رزقها ... ومن يومها تعيش فلورنسا عيش الكفاف . ولعل هنا السر فى أن المعيشة فيها — نسبياً — أرخص بكثير من ميلانو وروما ...

ومع ذلك لم يفقد أهل فلورنسا شيئاً من مرحهم المعروف . ومن حبهم للعيش الطيب والحياة الهنيئة بين الغناء والرقص وقرع الدفوف . ويساعدهم على هذا أن بلدهم موطن أشهر الأنبذة الإيطالية ... نبيذ كيانتى المشهور ، وهو يباع هنا برخص التراب !

وفى مساء أمس دفعت فى قنينة معتقة يرجع تاريخها إلى عام ١٩٣٤ دفعت مائتى ليرة أى ما يساوى اثنى عشر قرشاً !

وفى كل مساء تزدحم مطاعم ساباتينى وبوكالالى ودونى وجيوا كيمو وصالات الفنادق بأهل فلورنسا يطعمون ويشربون ويغنون ويرقصون ..

واليوم الأحد ، وأنا أكتب هذا لا فى ضوء شمعتين ، بل فى نور الشمس الساطعة ، أنظر عبر الشرفة إلى نهر « الأرنو » الذى يخترق المدينة — وقد تهدمت بعض الدور على ضفته الشرقية فى أثناء ارتداد الألمان — وإلى الكوبرى العتيق أو « بونتو فكيو » ومحال البضائع الجلدية والقطنية والمجوهرات القائمة على جانبيه ... وإلى مئات السائرين والسائرات على ضفتى الأرنو فى ملابس يوم الأحد ، وبأيديهم باقات البنفسج . .

وإلى العازفين على « الماندولين » والراقصين والراقصات على رصيف الأرنو ابتهاجاً بمقدم الربيع .. أنظر إلى هذا كله وأعجب : هل حاربت إيطاليا حقاً ؟ وهل اكتوى أهل إيطاليا بنار الحرب وويلاتها؟! إذن فلماذا لا يثقل الهم على أكتافهم كما يثقل على أكتاف الإنجليز وجيرانهم الفرنسيين ؟ أو أن المرح و« هز الكتفين » طبيعة في النفوس ... ولا شأن لهما « بالقوة ولا بالنصر ولا بالغنى ووفرة المال » ؟

باريس فى الربيع . .
موظفو السفارة المصرية ينتظرون الصيف بقلق شديد

باريس — مايو ١٩٤٧ :

« هذا أبهى ربيع عرفته باريس منذ سنوات كثيرة » !
عبارة تسمعها اليوم فى كل مكان من أفواه الباريسيين والباريسيات . تسمعها من عامل المصعد ، ومن عاملة « المانيكور » ومن « ميتر دوتيل » المطعم ، ومن سائق التاكسى ،وكل من هؤلاء « يحسبها » عليك تحية طيبة ، وينتظر منك جزاء عنها فى شكل بقشيش سخى !

وحقيقة ، هذا أبهى ربيع عرفته أنا فى باريس ، وهكذا جزى الله خيراً صبر باريس وأهل باريس عما قاسوه طول فصل الشتاء الماضى من عواصف الثلج وشدة البرد .. وقلة الفحم ووسائل التدفئة .

ومنذ أسبوع خلعت باريس ملابس الشتاء .. وخرج أهلوها — وبناتها — فى ثياب الربيع ، ولن أتورط فى وصف الألوان والأزياء ... أزياء القبعات وأزياء الفساتين وأزياء الأحذية .. وحقائب اليد .. ولكل من هذه زى جديد ، ويجمع بينها كلها « انسجام » لا تجده إلا فى باريس ! ..

وبدأت محال الأزياء — كارفن ومولينيه وماجى روف وغيرها — بدأت تعرض أزياءها التى أعدتها للربيع ... وللصيف و « للبلاج » . تعرضها فى « استعراضات» تقام فيها أو فى فنادق باريس الكبرى فى أثناء تناول الشاى ، ويمر أمام الحاضرين سرب من أجمل فتيات باريس ...

بين شُقْر وسُمْر وسط بين الاثنتين . أى عيون عسلية وشعر كستنائى دافئ . وكل منهن ترتدى الزى الجديد الذى يوافق لونها وقامتها ...

وبينهن من تبدو فى آخر زى جديد لثياب الاستحمام ... أو ثياب الشاطئ « بالشورت » والقميص ...

والقميص ذو نصف كم . أو من غير أكمام ! ..

وبين هؤلاء الفتيات من تنتمى إلى أسرة طيبة . وفى محل كارفن مثلا فتاة شقراء جميلة وديعة ، حلوة الابتسامة براقة العينين اسمها مونيك دى سالنى .. أبوها (وقد مات) كان يحمل لقب فيكونت . وأمها ابنة (بارون) ! وهى تعمل فى محل كارفن « مانكان » وكل مناها أن تلتقى بابن الحلال الذى يتزوجها .. وقد عرفت منها أن « كارفن » سوف يوفد فتياته « المانكان » إلى مصر فى شهر ديسمبر القادم ليعرض أزياء الشتاء ..

وقلت للآنسة مونيك : من يدرى ! قد تقابلين فى مصر زوجك الموعود ؟

وقالت بابتسامة : ولكننى غيورة جدًّا .. ولن أرضى أن أكون فى « الحريم » !

وتسعون فى المائة من أهل أوربا مازالوا يعتقدون أن مصر مثل بغداد فى عهد هارون الرشيد !!

وفتحت ميادين السباق فى «لونجشان» و«سان كاو» وقريباً فى «شانتى» .. وفى يوم الأحد الماضى ربح ما جوادمانى لونجشان ودفعت التذكرة فئة عشرة فرنكات ربحاً قدره ٩٧٢ فرنكاً أى سبعة وتسعين ضعفاً !

وفى زحام السباق .. سمعت فجأة « بيحرق دين .. ! »

وتلفت ورائى .. لاشك أن الاثنين من إخواننا السوريين أو اللبنانين . ويظهر أن هجرة شعبى القطرين الشقيقين — وكانت توقفت بسبب

الحرب – يظهر أن الهجرة قد بدأت من جديد .. وذلك أننى قابلت كثيرين من « إخواننا » فى ميلانو وفى روما وفى سويسرا وعلى الريفييرا وفى باريس .. ومن الصعب علىّ دائماً أن أفرق بين السورى واللبنانى ، لأن السحنة والملامح واحدة واللهجة واحدة .. وكل ما هنالك من فرق هو « رتوش » خفيفة فى طريقة سب وحرق الخلق والملة والدين !

ودعتنى منذ بضعة أيام صديقة فرنسية طبيبة وزوجها الموسيقار ، لتناول العشاء فى ماكسيم وقضاء السهرة فى مكان ما ، ودعت معى المغنية الباريسية الحسناء كوليت مارس صاحبة كاباريه «لا فى باريسيان» — وكان اسم الكباريه سابقاً « سوزى سوليدور » — وصديقة أخرى اسمها مراى ..

وسألتنى كوليت : هل قابلت يولاندا فى مصر ؟

قلت : ومن هى يولاندا ؟

قالت : زميلة .. مغنية ، ذهبت إلى مصر منذ ثلاثة أشهر .

قلت : ولكننى تركت مصر منذ ستة أشهر .

قالت : لقد كتبت إلى أخيراً تبدى إعجابها بمصر وكل شىء فى مصر ، وتقول إن أحد أصحاب الملايين أهداها سواراً ثميناً من الماس .. وتلح على فى زيارة مصر .

ثم قالت إنها تعاقدت على الغناء فى أثينا فى شهر سبتمبر القادم ، وقد تفكر فى الذهاب من أثينا إلى القاهرة .

وبعد العشاء اقترحت كوليت مارس أن نمضى السهرة فى كاباريه شرقى فتح أخيراً ، واسمه (الإسماعيلية) لكى نسمع صوت المغنية الجديدة جنفييف جيترى مطلقة ساشا جيترى الممثل والمؤلف المسرحى المشهور ، وكانت جنفييف بدأت تعمل فى الإسماعيلية منذ أيام ..

وذهبنا إلى الكاباريه وهو على مقربة من فندق « بلاتزا أتنيه » ..
وأعلنت الآنسة الموظفة أننا سنسمع موسيقى شرقية من أوركسترا مصرية شهيرة .
ودخل أعضاء الأوركسترا المصرية .. وكانوا أربعة رجال وفتاة ، وإذا بهم جميعاً من إخواننا التونسيين ..
وبدأ التخت يعزف .. وارتفع صوت « خنشور » منهم يغنى « افرح يا قلبي » للآنسة أم كلثوم .. ويردد أفراد التخت الغناء معه . ولكن بلهجة تونسية عريقة !
ثم غنوا دوراً آخر لعبد الوهاب ..
وبعدها وقف « الخنشور » وأعلن بالفرنسية أن الراقصة الرشيقة « زهرة » سوف ترينا عجباً من رقصها الشرقى !
ورقصت « زهرة » وهى لو حضرت إلى مصر لما استطاعت أن ترقص فى غير مسرح روض الفرج أو تياترو أبو الريش ..
وأخيراً ظهرت جنفييف جيترى وغناؤها لا بأس به . ولكن صوتها يصلح للأوبرا كوميك ، لا لغناء « الطقاطيق » فى الكاباريهات .

* * *

وكانت كوليت مارس فى وقت ما — وهى الآن فى الثانية والثلاثين من عمرها — كانت « صديقة » لموريس شيفالييه ، وقد قالت لى إنه أبخل رجل عرفته فى حياتها . وإنه برغم الثروة الطائلة التى جمعها من عمله المسرحى ، وخصوصاً من الأفلام الأمريكية ، يعيش عيشة شح وتقتير ... ومن ذلك أنه يقيم فى شقة ذات غرفتين فقط ، وتقوم على خدمته وطهو طعامه خادمة عجوز هى فى الوقت نفسه « فراشة » فى مسرح الكازينو دى بارى حيث يعمل موريس عادة .. أى أن موريس يدفع لها نصف مرتب فقط لأنها تعمل عنده بالنهار وفى المساء تعمل فى الكازينو !

وتركه مرة عازف البيانو الذى يصحبه على المسرح فى أغانيه ، تركه لقلة الأجر الذى يدفعه له موريس شيفالييه .. وأعلن موريس عن حاجته إلى عازف بيانو .. ولم يرض أحد من العازفين المعروفين أن يعمل معه بسبب بخله المشهور ..

وأخيراً تقدم شاب مبتدئ لم يسبق له الظهور على المسرح : وتعاقد معه موريس على الشروط الآتية :

أن يقدمه موريس كل مساء للجمهور بعبارات كلها مديح وإطراء (وهذه الدعاية من موريس شيفالييه كفيلة بشهرة أى عازف مبتدئ) وأن يعمل معه مجاناً — بدون أجر لمدة — شهرين .

وبعد الشهرين يتفق على مرتب .. ولكن يخصم ٢٠٪ من هذا المرتب بصفة عمولة لموريس شيفالييه ، وهى العمولة التى تتقاضاها وكالات التوظيف !

وتقول كوليت إنه كثيراً ما تذهب فتيات جميلات ، يطمعن فى الحصول على شهرة فى عالم الموسيقى والتمثيل ، إلى موريس لكى يساعدهن .

وهذه المساعدة إما فى مقابل مبلغ معين من المال تدفعه الفتاة .

وهنا يخرج معها موريس كل مساء إلى المطاعم المشهورة والأندية الليلية : ويراها معه الباريسيون فى السهرات ، ويتساءلون بطبيعة الحال من هذه الحسناء ؟ .. ونفقات السهرة طبعاً تدفعها الفتاة .

وإما — والرأى لموريس نفسه — أن تصبح الفتاة « صديقة » له — ومجاناً طبعاً — وفى هذا ضمان كاف لأن تشتهر الفتاة فى الأوساط الفنية فى باريس !

وليس لموريس شيفالييه سوى وارث واحد هو ابن أخيه .. وفى مقابل هذا « الميراث المنتظر » يعمل ابن الأخ المذكور عند عمه موريس فى وظيفة كاتب حسابات وسكرتير يرد على الخطابات .. ولكنه يعمل مجاناً !

وفى ليالى الربيع تنساب السيارات الخاصة وسيارات التاكسى كل مساء إلى غابة بولونيا وفيها من كل زوجين اثنان ؟

شيوخ وفتيات ..

أو فتيان وفتيات ..

أو « عجوزات » وشبان ..

وتقف السيارة فى إحدى « حوارى» الغابة بين الأشجار !

وآخر نكتة تتناقلها باريس فى هذا الموضوع هو أن أحد راكبى الموتسيكلات من بوليس حفظ الآداب مر بسيارة ما من هذا النوع وكان فيها شيخ وفتاة .. ووقف رجل البوليس وحرر مذكرة بمخالفة .. لأن راكبى السيارة تركا النور الداخلى فى السيارة مضاء !!

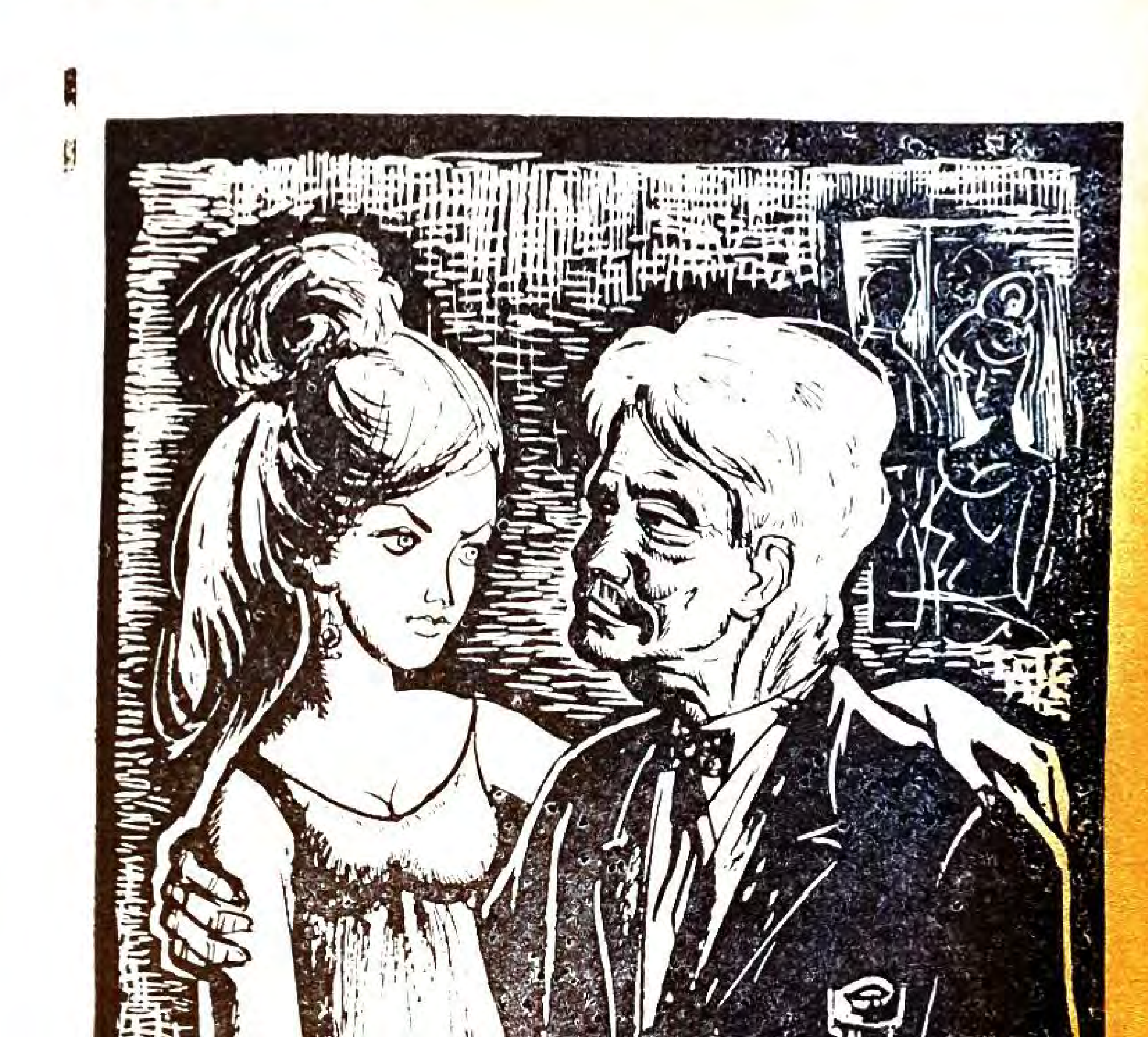
هذه هى المخالفة .. ولا شىء آخر فى ذمة رجل البوليس النشيط !

* * *

وموظفو السفارة المصرية هنا يمسكون اليوم قلوبهم بأيديهم خوفاً من اقتراب فصل الصيف . وموسم قدوم الزائرين المصريين إلى باريس ..

وقال لى أحدهم فى هذا : إن الزائر المصرى يعتقد أن السفارة أو القنصلية المصرية هنا ما هى إلا فرع من محل « كوك » ، فهو ينتظر منا أن نوفد إلى المحطة من يستقبله ، وأن نحجز له غرفة فى أحد فنادق باريس ، وأن نساوم فى إيجار الغرفة ، وأن نحجز له محلاً فى قطارات فرنسا المزدحمة .. وأراد أحدهم مرة أن يحجز له ولأسرته « لوج » فى مساء يوم سبت فى مسرح «الفولى برجير » فقيل له إن جميع الألواج مباعة طول أيام الأسبوع .. ومع ذلك جاء إلى السفارة يطلب منا أن نستعمل « نفوذنا » فى الحصول له على اللوج المطلوب ، وفى مساء السبت بالذات !

ومضى الموظف يقول : وابتداء من منتصف يونيو سوف تغص مكاتب السفارة والقنصلية بالزائرين المصريين الذين يحضرون لا لعمل



الفتيات الباريسيات والشيوخ

أو ما يتصل بعمل ... وإنما للسؤال عن أحسن رواية تعرض الآن فى باريس ، أو عن أرخص مطعم .. أو عن عنوان محل يبيع حرير ليون أو .. أو إلى آخره ، كأن موظفى السفارة والقنصلية ليس لهم من عمل سوى هذا .. وإذا عجزنا عن تأدية الخدمة المطلوبة ، أو اعتذرنا عن عدم أدائها ، هز الزائر الكريم كتفيه وخرج يقول لأصحابه : « أمال يا خويا دول بيعملوا إيه ؟ ! »

ويرجو موظفو السفارة المصرية أن يكون الغلاء المطرد وارتفاع سعر الفرنك سبباً فى عدول السائحين المصريين هذا الصيف عن القدوم إلى باريس .

والغلاء حقيقة لاشك فيها ، وتكاليف المعيشة اليوم فى باريس على وجه الخصوص وفرنسا على وجه العموم ، أغلى منها فى العام الماضى بكثير .

* * *

ولقد عمدت حكومة بلوم فى شهر ديسمبر الماضى إلى سياسة مقاومة التضخم المالى والغلاء ، فقررت تخفيض ٥٪ من جميع الأسعار . وأعقبتها حكومة راماديبه الحالية بتخفيض ٥٪ أخرى .. ولكن ماذا تفعل ١٠٪ فى غلاء بلغت نسبته بين ٨٠٠ و ١٠٠٠ فى المائة إلى أسعار سنة ١٩٣٩ ؟

كذلك ليست هناك أية رقابة جدية على الأسعار . فهناك مثلا محال تجرى تخفيض العشرة فى المائة فى فاتورة الحساب ، ولكن بعد أن تكون قد أضافت ٢٠ أو ٢٥ فى المائة إلى الأسعار .

من ذلك أن الصديق سليمان نجيب كان قد أهدى إلىّ فى الصيف الماضى بعض « كرافتات » اشتراها من محل سولكا بسعر ألف فرنك للكرافتة ..

هذا فى شهر يولية ١٩٤٦ .. وفى نوفمبر ١٩٤٦ زرت محل سولكا فإذا نفس الكرافتة تباع بمبلغ ١٢٠٠ فرنك !

وذهب صديق من موظفى السفارة المصرية منذ أسبوع واحد إلى سولكا فإذا الكرافتة نفسها تباع بمبلغ ١٤٠٠ فرنك ، وقس على هذا بقية الأسعار ..

ومن أخبار إيطاليا أن رئيس جمهوريتها السنيور دى نيكولا قد زهد فى منصبه ، ويريد أن يستقيل ، وذلك لسببين :

أولهما كثرة الذين يقصدونه لكى يجد لهم مسكناً خالياً !

ثانيهما كثرة الذين يطلبون منه أن يقرضهم مما أعطاه الله !

ويقوم الآن رئيس الجمهورية الفرنسية الرابعة مسيو فنسان أوريول زيارة ممتلكات فرنسا فى أفريقيا الغربية .

وسمعت هنا فى بعض الدوائر الصحفية أن مسيو فنسان أوريول قد يقوم بعد عودته من هذه الرحلة بزيارة رسمية لإنجلترا بمناسبة عقد معاهدة التحالف بين البلدين ، ويرد له ملك إنجلترا طبعاً الزيارة فى باريس .

وبهذه المناسبة .. كان هناك رجل فرنسى فى عام ١٩٤٣ يعيش متنكراً فى فرنسا متنقلا من مخبأ إلى مخبأ هرباً من رجال الجستابو الألمانى الذين كانوا يبحثون عنه ، لأنه كان من أقطاب « الحركة السرية » فى فرنسا . واستطاع الرجل فى آخر الأمر أن يهرب إلى إنجلترا .

ولقد وصل ذات مساء إلى لندن ، وهو ممزق الثياب ، كثّ اللحية ، مغبر الوجه ، وفى حذائه ثقب كبير ظهر منه أصبعان من أصابع القدم !

واستقبله بعض أصدقائه فى لندن ، ودعوه إلى تناول العشاء معهم فى فندق كلاريدج .

ولكن رئيس الخدم « الميتر دوتيل » فى قاعة الطعام بالفندق الفخم المذكور رفض أن يسمح للرجل بالدخول .. والسبب كان شكله وزيه وقذارته !

والسؤال الآن .. ترى لو ذهب هذا الرجل غداً إلى فندق كلاريدج فى لندن فكيف يستقبله رئيس الخدم ؟

لقد كان هذا الرجل هو فنسان أوريول رئيس جمهورية فرنسا الآن !!

فتاة الشوارع
التى أبكت قصتها الملايين

باريس — يونية ١٩٤٧ :

احتفلت الأندية الأدبية فى باريس بمرور خمسين عاماً على وفاة إسكندر ديماس الصغير . ولكنه كان احتفالا بسيطاً متواضعاً لم يشترك فيه سوى نفر قليل من أدباء فرنسا الذين يقدرون لديماس أدبه القصصى الرفيع . أما فيما عدا ذلك فقد مرت « الذكرى » دون أن تذكرها باريس أو تلقى إليها بالا ! ..

وإن هى إلا أيام حتى كان هناك احتفال آخر ، ولكن باريس هذه المرة قامت بأسرها تشترك فى هذا الاحتفال .. وأقصد باريس الشعبية .. باريس مونمارتر ومقبرة « بيرلاشيز » .. باريس الأدباء والموسيقيين والشعراء والرسامين ... باريس المحبين وفتيات الهوى أنى كان ميدان الهوى . . فى الشانزيليزيه وغابة بولونيا .. أو كان على الضفة اليسرى فى مونبارناس أو فى مونمارتر على درجات كنيسة الساكركير ! !

وكان هذا الاحتفال بمناسبة مرور مائة عام على وفاة (ألفرنسين بليسى) والفونسين بليسى هذه هى مرغريت جوتييه أو « غادة الكاميليا » بطلة القصة التى كتبها إسكندر ديماس . وخلدها فردى بموسيقاه .

وهكذا نسيت باريس المؤلف . وذكرت بطلة القصة . أو إن شئت فقل : نسيت الخالق وذكرت المخلوق ! .. فقد استطاع ديماس أن يجعل من ألفونسين بليسى فتاة الشارع « ضحية » تستدر الدموع ... وأن

يخلق منها شخصية نبيلة أو زهرة يانعة طاهرة داسها القضاء ظلماً بقدميه. ولم تكن ألفونسين فى الحقيقة على شيء من النبل ولا من الطهر ... وإنما كانت فتاة عادية من فتيات الشارع والليل . تسقى كأس الهوى كل قاصد ، وتتعاطى كأس الهوى مع كل عابر سبيل . وإنه لمن حسن حظ الأدب وفن القصة أن إسكندر ديماس لم يكتشف هذه الحقيقة . بل عاش ومات وهو يؤمن بأن ألفونسين كانت زهرة طاهرة قست عليها يد القدر .. فى حين أن ألفونسين هذه لم تكن سوى فتاة من أسواق بابل تبيع الهوى لمن يشتريه .

ولو أن ديماس كان قد عرف هذه الحقيقة وتفتحت عيناه . لكان فن القصة قد خسر آية من آياته البينات .

وقصة «غادة الكاميليا» من أوسع القصص انتشاراً ، بل لعلها — مثل روميو وجولييت — القصة التى ترجمت إلى جميع لغات العالم ، ومثلت على جميع مسارح العالم ، واستدرت الدمع من العيون ... لا فرق فى هذا بين أبيض وأسود أو أحمر وأصفر . مع حفظ الفارق طبعاً بين القصتين . وبين المؤلفين ومكانة كل فى عالم الأدب . .

ثم هناك فرق آخر ، هو أن روميو وجولييت شخصيتان خلقهما شكسبير من خياله الخصب ، وليس لهما فى التاريخ سند من رواية أو أسطورة ، فى حين أن مرغريت جوتييه شخصية حقيقية عاشت وماتت وكان مسرح حياتها القصيرة ... باريس .

وكانت مرغريت جوتييه — واسمها الحقيقى ألفونسين بليسى — فى الثامنة عشرة من عمرها حينما التقت لأول مرة بالكاتب الشاب إسكندر ديماس وكان هو فى العشرين من عمره . وتذوق الاثنان لذات الهوى أربعة أشهر ..

أربعة أشهر فقط خرجت بعدها « ألفونسين » من حياة الفتى ، ولكن

هذه الأشهر الأربعة كانت كافية لأن تملأ صدر الفتى العاشق حنيناً ولوعة ، ولم تستطع حياة الهوى التى عاشتها الفتاة وهى تنتقل من أحضان إلى أحضان ومن عاشق ثرى إلى عاشق ثرى ، لم تستطع أن تشفى ديماس من حبه أو تنسيه ألفونسين ، بل كان يلتمس لها الأعذار ، ويعدها ضحية من ضحايا القضاء والقدر إلى أن ماتت فى يونية سنة ١٩٤٧ .

وهنا — وكانت مأساة غرامه لاتزال حية تتأرجح فى صدره . مع أنه كان قد افترق عن معشوقته منذ أعوام — هنا جلس ديماس وكتب قصته الخالدة « غادة الكاميليا » وقد أبدل اسم ألفونسين بمرغريت جوتييه واسمه هو بأرمان ديفال !

ومن يومها زاحمت غادة الكاميليا .. جولييت شيكسبير فى تاريخ العشق والعشاق .. وأصبحت قصتها على كل لسان . وأصبح قبرها المتواضع فى مقبرة « بيرلاشيز » — مقبرة الفقراء ، واللقطاء وأبناء السبيل فى باريس — أصبح قبرها كعبة ومزاراً للعاشقين ، ومع أنه قد مر على وفاتها قرن كامل — مائة عام — لايزال قبرها هذا دائماً مغطى بالزهور هدايا وقرابين من عشاق برح بهم الهوى ، أو عشاق أضناهم الفراق ، أو محبين بسم لهم الزمن .. كل منهم جاء إلى قبر « ضحية الهوى » كما رسمها ديماس يضع عليه باقة من زهر البنفسج أو الورد أو من الكاميليا زهرتها المحبوبة .

وعلى القبر قطعة صغيرة من الرخام نقش عليها تاريخ المولد وتاريخ الوفاة : « ألفونسين بليسى ، ولدت فى ١٥ يناير ١٨٢٤ وماتت فى ٣ يونية ١٨٤٧ »

٢٣ عاماً ! .. ما أقصر عمر هذه الفتاة التى خلد ذكراها إسكندر ديماس ! . . فلولا ديماس لكان الناس قد نسوا ألفونسين بليسى .. أو إن هم ذكروها ، ذكروها على حقيقتها ، فتاة هوى رخيص .. أبرز ما فى صفاتها وأخلاقها حبها للكذب وحبها للمال . ولكنها كانت

« أستاذة » فى فن الكذب والخداع . ومن ثم استطاعت دائماً أن تخدع عشاقها وكان ديماس أحد المخدوعين ! ..

ولدت ألفونسين بليسى فى إحدى قرى مقاطعة نورمانديا فى بيت أو كوخ وضيع ، وماتت أمها فى أثناء الوضع ، وتركتها لرحمة أب سكير .

وذات يوم ، وكانت فى الثالثة عشرة من عمرها ، مر بالقرية « سرك » وأغراها سائق إحدى عربات السيرك بالفرار معه إلى باريس .. وفى شوارع باريس تركها عشيقها السائق وفى جيبها فرنكان ! وعاشت الفتاة — أو الطفلة — نحو عامين فى مواخير كبارى السين التى كانت رائجة فى ذلك العهد — عصر الملك لويس فيليب — ما بين اللوفر وكنيسة نوتردام ، وكان الثمن — ثمن جسدها النضير — ثلاثة فرنكات ، إلى أن قابلها ذات ليلة على الكوبرى الجديد « بون نيف » تاجر على شىء من الثراء ، وقد استرعاه شبابها وجمالها النحيل اللامع الشبيه بجمال زهرة الياسمين ، وعيناها الواسعتان تحيط بهما هالة كانت نذير السل الذى قصف حياتها قبل الأوان !

وحملها الرجل إلى داره واتخذ منها عشيقة ، وأغدق عليها العطاء وابتاع لها الثياب والحلى وعربة خاصة يجرها جوادان ! ..

وسرعان ما اندمجت الفتاة الريفية فى عشها الجديد ... وعرفت كيف تمشى وكيف تختال ، وكيف ترمى النظرة هنا وهناك ، وكيف تميز بين النبيل المفلس وبين النبيل الغنى .. وبين ابن العامة وابن الأشراف . وكانت يومها لم تبلغ بعد السادسة عشرة من عمرها ، ومع ذلك استطاعت فى زمن وجيز أن تتقن فن « الغوانى » وضروب الدلال .. وألوان الصيد الحرام ! ..

وإن هى إلا أشهر حتى كانت باريس تحت قدميها تنتقى منها وتختار !

من دوق إلى كونت . ومن كونت إلى تاجر من أصحاب الملايين ، إلى ماركيز ، إلى ضابط عظيم فى حاشية لويس فيليب ..حلى ومجوهرات .. عربات وجياد .. زهور وعطور .. نشوة فى الليل ونشوة فى النهار وإسراف فى الجسد والقبلات ! ..

أما قلبها فقد ظل مغلقاً .

قالت ذات يوم لعشيق كان يعاتبها : « لوكان لى قلب لماعرفتك »! ..

إلى أن التقت ذات يوم بشاب كاتب مغمور اسمه إسكندر ديماس ، وهنا تفتح قلبها لأول مرة .. أو قل انفرجت قليلا ثنايا الباب ! وكان حبها لديماس أول شعلة أضاءت حياتها ، حياة النشوة والشهوة والظلام ، ولم تدم العلاقة سوى أربعة أشهر .. لأن ديماس كان فقيراً ، وكانت ألفونسين تشتهى دائماً المال والعيش الرغيد ، ولو كان ديماس غنياً لطالت العلاقة أو ربما انتهت بالزواج .. وكان العالم فقد هذه القصة : قصة غادة الكاميليا ..

وودعت ديماس ذات يوم والدموع تملأ عينيها الواسعتين اللتين تحيط بهما هالة رقيقة سوداء ، وكان المرض الوبيل قد بدأ ..

وانطلقت .. أو عادت إلى الحياة التى كان انتشلها منها ديماس ! وراجت تنتقل من دار هوى إل دارهوى ، ومن أحضان إلى أحضان ، إلى أن أطبق عليها المرض ورماها فى الفراش ..

وقاست فى مرضها ما قاست ، وحان الأجل ...

وحاولت ألفونسين أن تنهض من فراشها فلم تستطع .. ونادت :

ساعدونى ! ...

لقد أحست باقتراب ساعتها واشتهت أن تلقى نظرة أخيرة ـ نظرة الوداع ـ على باريس الأناقة ، باريس الترف ، باريس الموسيقى ، باريس الخلاعة باريس التى أحبتها وعرفت فيها أحلى وأمر أيام حياتها ..

حملوها وقالوا : إلى أين ؟ ..

قالت : إلى مسرح الباليه رويال !

وهكذا كتبت ألفونسين بنفسها المشهد الختامى فى قصتها الخالدة ! لأن مشهد مقصورة الباليه رويال ، وهو المشهد الذى سبق مشهد احتضارها بدقائق ، لم يمثل مرة على المسرح أو على شاشة السينما أو فى الأوبرا إلا استدر الدموع والزفرات ..

هذا المشهد كان واقعة حقيقية ولم يبتكره خيال ديماس !

لقد اشتهت ألفونسين أن تشهد مرة أخرى أو للمرة الأخيرة ميدان انتصاراتها ، فطلبت من خدمها أن يحملوها إلى الحفلة الساهرة التى كانت مقامة يومها فى الباليه رويال . تاركة وراءها فى قاعة الانتظار فى مسكنها رهطاً من الدائنين ..

وأجلسوها فى مقعد فى مقصورة وتلفتت إليها العيون . وقد أنكرها الكثيرون ، ترى من تكون هذه الفتاة المريضة ؟

الداء الوبيل سرى فيها وشوه جمالها ..

وهمس أحدهم : هذه « غادة الكاميليا » .. فقد كان هذا هو لقبها المعروف فى باريس ..

وانفرجت شفتاها الباهتتان عن ابتسامة .. وخيل إليها فى سكرة الموت أنها ماتزال — كما كانت — محط الإعجاب وكعبة الأنظار ..

ثم سقط رأسها إلى الخلف ! وهكذا ماتت .. وكانت موسيقى الرقص تعزف لحن العاشقين ! ..

كابرى جزيرة النعاج وكعبة العشاق

ربيع ١٩٤٩ :

كابرا ، كلمة لاتينية معناها « نعجة » وجمع كابرا كابرى أى نعاج . وجزيرة كابرى معناها إذن جزيرة النعاج !

فهل ترى هناك علاقة أو وجه شبه بين النعاج والعشاق وحديثى العهد بالزواج ؟ .. وهل لهذا السبب أصبحت جزيرة النعاج هى الملجأ المختار للعشاق وطلاب شهر العسل يمارسون فيها ألوان الحب .. ويتمرنون فيها على ألوان الطاعة والخضوع حتى يصبح الرجل الغضنفر فى وداعة وهدوء واستسلام النعاج ! بعد أن يسلم أو يسلس قياده لزوجته أو حبيبة القلب والفؤاد !

كل شىء مباح هنا فى كابرى . الحب الصريح الذى يعلن عن ذاته بالقبلات .. مباح !

القبلة فى الطريق أمر مباح !

وهصر الخصر فى الطريق شىء مباح .. لا يستحق من العابرين لفتة رأس .

وضم الحبيبة إلى الصدر فى ميدان أمبرتو الأول أكبر ميادين الجزيرة . شىء لا يلفت النظر ! إلا ابتسامة من رجل البوليس الذى ينظم حركة المرور ! .. فقد يبتسم وتبارك عيناه العاشقين ! ..

وعلى شاطئ البحر .. تسترخى الأجساد فوق الرمال البيضاء .. أجساد شقراء وسمراء وخمرية اللون حاولت — ولكن فى غير جهد —

أن تتستر فى لباس الحمام الزاهى اللون .. من أحمر قان .. أو أصفر .. أو أزرق .

لباس يكشف أكثر مما يخفى ! وإن هو أخفى شيئاً فإنما يخفى ما أمر الله بإخفائه .. ولا أكثر !

وتسترخى الأجسام فوق الرمال ..

وشباب ينحنى من فوق شباب ..

هذا شاب أمسك بين راحتيه ببرتقالة وراح يعصرها .. وفم الحبيبة يلتقط العصير .. وقد تخطئ يده الحساب والتقدير — وربما عن قصد — وتتساقط قطرات العصير فوق العنق والصدر وما إلى العنق والصدر وهنا يهوى الشاب بفمه ويمسح القطرات بشفتيه !

أمر لا يلفت النظر ! لأن كلا فى شغل شاغل عن صاحبه وأخيه !

وامرأة ترتدى سروالا أحمر اللون من فوقه قميص (بلوزة) أصفر اللون وقد شدت حول خصرها الممتلئ حزاماً عريضاً أخضر اللون .. ولفت رأسها بمنديل أحمر .. وفى أذنيها أقراط من المرجان !

امرأة أعطاها الله من كل شىء ولكنه لم يعطها الجمال !

أما الشباب فلم يبق لها منه إلا الذكريات .. ولكن ماذا يهم ؟

إنها أمريكية من صاحبات الملايين .. وإذا كان المال يشترى السيارة الفخمة ، ويشترى الدار الأنيقة ، والطعام الحسن ، والشراب الشهى والجواهر . فلم لا يشترى المال الشباب والوجه الجميل ؟

لم لا يشترى الدولار « أدونيس » فى شخص شاب من أهل الجزيرة ؟

وتقبل صاحبتنا الأمريكية وهى تستند إلى ذراع إله الجمال وهو شاب من أهل الجزيرة قد احترف مهنة بيع الشباب والجمال ..

شىء لا يلفت النظر ! لأن كل شىء فى كابرى مباح !

وفى قاعة الطعام فى الفندق الذى نقيم فيه .. ما من مائدة إلا جلس إليها زوجان .. ذكر وأنثى ! أو كما قال صديقى وزميلى فى هذه الرحلة أحمد الألفى عطية .. (كل الأحبة اتنين اتنين) .. إلا مائدة واحدة جلس إليها خنشوران ! .. ولا أنثى بينهما !

وهى مائدتنا نحن ..

ويتنهد صديقى وهو ينظر إلى ويقول : بأه دى خلقة !

وأقول له : ومن قال لك أن تطيل النظر فى المرآة ؟ !

* * *

وجزيرة كابرى تبعد عن ميناء نابولى نحو عشرين ميلا تقطعها بواخر صغيرة سريعة فى نحو ساعتين ...

ومساحة الجزيرة نحو أربعة أميال مربعة ، ويبلغ عدد سكانها ثمانية آلاف نسمة ...

وكابرى تتكون من جبلين متوسطى الارتفاع ، إذ يعلو الواحد منهما عن سطح البحر نحو ألف قدم . وبين الجبلين منبسط عريض من الأرض المستوية .. وعلى جوانب الجبلين وفوق القمتين قامت الدور « الفيلات » الأنيقة ما بين بيضاء وصفراء وحمراء وزرقاء اللون ، وقد تناثرت جميعها فوق رقعة خضراء ، هى الأشجار التى تكسو كابرى وجبليها الاثنين .

دور يملكها سادة المال ، وسادة العلم والفن ، من كتاب عالميين وموسيقيين وقصصيين ملء السمع والبصر ، أسماؤهم على كل لسان ..

ودور تؤجر للعشاق وطلاب شهر العسل ، يتذوقون فيها وفى نعيمها ألوان الحب ، ويسبحون فيها بحمد الله .

ودور يقيم فيها خزان الدموع والذكريات .. ! نعم ، ما أمر الفراق وما أحر اللوعة !

زوج خاب أمله وزواجه . فجاء إلى كابرى ..
وعاشق خاب فى حبه . فجاء إلى كابرى ..
وحبيب فرق الموت بينه وبين تلك التى أحب . فجاء إلى كابرى !

جاءوا يلتمسون فى كابرى الهادئة الوديعة .. الجزيرة المنعزلة .. بطرقاتها الصاعدة إلى قمة الجبل ، وطرقاتها الملتوية الضيقة الهابطة إلى شاطئ البحر .. وبين أشجارها الخضراء الكثيفة . تسكنها طيور تغرد عند مطلع الفجر ، وتغرد عند مغرب الشمس .. جاءوا يلتمسون فيها السلوى ...

وقد تقع عينا الواحد منهم — ولابد أن تقعا — على مشهد غرام فى كابرى .. فتبتسم شفتاه .. وقد تدمع عيناه .. ويخفق قلبه إذ تعود به الذاكرة إلى عشرين أو ثلاثين عاماً إلى الوراء .. هذا المشهد .. كان مشهده هو مع الزوجة التى خانت .. أو الحبيبة التى غدرت .. أو تلك التى فرق الموت بينها وبينه !

ثم يمضى فى طريقه إلى مأواه فوق القمة أو عند سفح الجبل ، ليستأنف حياة الذكريات !

وكنت زرت كابرى لأول مرة فى أواخر مارس ١٩٣٨ وكان أول ما طالعنى يومئذ فى كابرى هى تلك العبارات الفخمة الطنانة الرنانة التى كان ينثرها موسولينى فى خطبه فتذهب مذهب الحكم والأمثال ! وتبادر الهيئات الحكومية والمجالس البلدية إلى نقشها على جدران المدينة وعند مفترق الطرق بحروف يبلغ ارتفاع الحرف الواحد منها نحو مترين !

وقد قرأت يومئذ على جدران الدور المحيطة بميناء كابرى : « الطاعة والتنفيذ والنظام » والإمضاء ... موسولينى !

وقرأت : « إن تاريخنا هو تاريخ المدينة لألفى عام » والإمضاء ... موسولينى !

واليوم — وقد زال موسوليني .. ودالت دولته — زالت العبارات بعد أن بادرت نفس الهيئات الحكومية ونفس المجالس البلدية إلى محوها من على الجدران !

ألا ما أجحد الإنسان !

وعلى بعد بضعة أميال من كابرى تقوم جزيرة « أشيا » التى تقيم فيها أرملة موسوليني السيدة راشيل . ومعها أصغر أولادها سناً رومانو وحناماريا .. ويتحايل الثلاثة على كسب عيشهم ؛ ولكنهم لا يصيبون منه سوى الكفاف !

والأيام دول ... وسبحان المعز المذل !

ولقد زارت « البرنسيس مرجريت روز » صغرى كريمتى ملك إنجلترا جورج السادس إيطاليا وجزيرة كابرى .. وكانت رحلة الأميرة إلى إيطاليا موضع الدهشة والتساؤل والإشاعات .. إذ لم يسبق لأميرة ملكية فى مثل سنها الصغيرة — وخصوصاً فى البيت المالك الإنجليزى المحافظ المتمسك بالتقاليد — أن تقوم وحدها برحلة إلى القارة !

ومن هنا نشطت الصحف والمجلات .. وخصوصاً فى إيطاليا ، وعلى الأخص الصحف الشيوعية منها !

قالوا بين ما قالوه إن الأميرة الصغيرة — وهى معروفة بقوة الشكيمة وصلابة الرأى أو صلابة الرأس — قد وقعت فى هوى إنجليزى ليس بذى مقام تسمح معه التقاليد بزواجها منه ، ولكنها أعلنت والديها العظيمين بأنها تحبه ، وأن شيئاً لن يحول دون زواجها منه !

ومن هنا اقترح والداها حلا وسطاً ! وهو أن تمضى إلى إيطاليا فى رحلة شهر تراجع فيه قلبها ونفسها .. فإذا رأت بعد عودتها أنها لاتزال تحب الفتى .. فليكن لها ما تريد !

وقالوا العكس ! .. أى أن الأميرة الصغيرة أحبت ، ولكن الذى

أحبته لم يبادلها حبًّا بحب . ومن هنا التمست من والديها أن يسمحا لها بهذه الرحلة .. لعلها تنسى وتسلو !

أما الجريدة الشيوعية « البايبزى » التى تصدر فى روما فقد كتبت تقول إن هناك احتمالا قويا فى أن تتم مقابلة الأميرة مرجريت روز مع الأمير شارل الوصى على عرش بلجيكا فى أثناء هذه الرحلة ؛ لأن زيارة الاثنين لروما وفلورنسا سوف تقع فى وقت واحد .. واختتمت الجريدة مقالها بقولها : « ترى هل تلقى الأميرة الإنجليزية فى روما زوجها الموعود ؟ إن قران الأمير البلجيكى بكريمة ملك إنجلترا سوف تترتب عليه آثار سياسية لا يمكن إغفالها ؛ فإن بلجيكا وهى إحدى الدول المستعمرة ليس لديها أسطول يذكر . ولاشك أن فى مصلحتها أن تربط نفسها إلى إنجلترا التى حرص أسطولها الضخم على حماية ممتلكات المستعمرتين مثل بلجيكا وهولندا » .

* * *

أما شيوخ الجزيرة — جزيرة كابرى — فقد هزوا رءوسهم عندما طلعت عليهم مرجريت روز بوجهها المشرق وثغرها الباسم ، وقالوا إن الأميرة لابد أن تكون عاشقة ! .. لأنه ما من أحد يزور كابرى إلا إذا كان عاشقاً أو زوجاً أو خطيباً ..

ولقد تصادف وجودى بالجزيرة فى أثناء زيارة الأميرة الجميلة .. واحتشد فى كابرى مراسلو صحف العالم وشركات الأنباء ، وراحوا يبرقون بأدق التفصيلات ، ومن ذلك طعام الغداء التى تناولته الأميرة أول يوم ، وهو مكون من أرز بكبدة الفراخ ، ولحم مشوى وإسبرج ونبيذ أبيض .. وبعدها القهوة وقدح صغير من شراب الكوانترو !

ولقد آثرت الأميرة وحاشيتها المكونة من سيدتين وشابين — لعلهما من رجال سكوتلانديارد — أن ينزلوا فى فندق من فنادق الدرجة الثانية

بالجزيرة .. تفادياً لزحام الفضول !

وقد زارت الأميرة الآثار الرومانية فى الجزيرة ومن بينها « الفيلا » التى كان يقيم فيها الإمبراطور طيبيريبس ، وكانت كابرى مقره المفضل ، بل كانت فى عهده أشبه بعاصمة الإمبراطورية الرومانية ، حيث كان يقيم فيها إقامة متصلة ويدير منها سياسة الملك !

وزارت المؤلف العجوز أدوين شريو فى داره الواقعة على شاطئ الجزيرة .

وكان فى نيتها أن تزور جزيرة أشيا حيث تقيم أرملة موسولينى . ولكنها عدلت فى آخر لحظة عن هذه الزيارة .. والسبب الرسمى هو اضطراب البحر فى ذلك اليوم !

ولكن البحر مظلوم فقد كان أهدأ ما يمكن أن يكون !

ولهذا .. زعموا أن السلطات المحلية التمست من الأميرة العدول عن زيارة أشيا حتى لا تقابلها أرملة موسولينى .. وقد تستغل الصحف الشيوعية هذه المقابلة وتقول مثلا إن كريمة ملك إنجلترا الفاشية تزور أرملة مؤسس الفاشية !

ثم غادرتنا الأميرة مرجريت روز إلى روما ومنها إلى باريس .

وكنا جالسين ــ أنا وأحمد الألفى ــ فى أحد مقاهى ميدان أو مبرتو الأول حين أبصرنا شبه زحام حول سيارة مكشوفة وقف يحرسها رجلان من رجال الشرطة ...

وعرفنا أنها السيارة التى سوف تقل مرجريت روز إلى ميناء الجزيرة لكى تركب الباخرة إلى نابولى ...

وأقبلت الأميرة .. ولم يكن بينها وبيننا سوى بضع خطوات .

وقد دهشت ، لأنها تبدو فى صورها التى تنشرها الصحف أطول قامة وأكبر « حجماً » مما هى عليه .

والحقيقة أن مرجريت روز قصيرة القامة، نحيلة، رقيقة التقاطيع. تبدو كأنها لاتزال فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرها ...

أحلى ما فيها عيناها!

وفمها الذى يفتر عن ابتسامة لا أثر فيها للتكلف أو الصناعة!

وكانت تحمل فوق ذراعها باقة من القرنفل الأحمر تضمها إلى صدرها ...

والتفتت إلينا تبتسم وتحيي قبل أن تنطلق بها السيارة.

وصفقت الجماهير .. وتنهد صديقى أحمد الألفى عطية مرة أخرى!

مونت كارلو : « كارت بوستال » بالألوان !

مايو ١٩٤٩ :

كان البرنامج المتفق عليه أن نمضى فى جزيرة كابرى أسبوعاً أو عشرة أيام ، ومثلها فى روما ، ثم ننطلق بالسيارة من روما مارين بفورميا وجروسيتو وليفورنو وبيزا — وبرجها المائل إحدى عجائب الدنيا السبع — إلى جنوا ومنها إلى الريفييرا أى سان ريمو ومونت كارلو ونيس وكان ... إلى آخره .

كان هذا هو المتفق عليه بينى وبين صاحبى فى هذه الرحلة .. ولكن صاحبى غجرى !! وإن ترفقت به فقل « بوهيمى » ! ولا عجب فهو النائب المحترم للدائرة الانتخابية التى تقع فى زمامها سنباط التى تورد لأنحاء القطر كافة حاجتها من الراقصات (الغوازى) والغجريات ندق ونطاهر ونبين زين ونشوف البخت !

لم تكد تمضى علينا أيام ثلاثة فى كابرى حتى بدأ صاحبى يدمدم ويتململ ويتبرم بهذا الجمال الساحر الذى يحيط بنا من كل جانب ! جمال الخالق وما خلق ! الجبال وصخورها البركانية بين زرق وحمر وسود ! والغابة الخضراء . والزهور فى ثورة من الألوان الزاهية ... والبحر وماؤه الذى فى لون الزبرجد الصافى . ورمال الشاطئ الحمر .. والأجساد التى تتوسد الرمال .. تطلب دفء الشمس بعد الاستحمام ! ويبعث مرآها الدفء فى الصدور !

والنظرات التى تتلاقى .. والشفاه التى تلتقى .. والأذرع تحيط

بالحصور ! والرءوس تتوسد الأكتاف ! ..

وضج صاحبي وصاح أنه من لحم ودم ! وأن أعصابه ليست من حديد !

قلت له : ألا تستطيع أن تهوى الجمال وتقنع منه بالنظر ؟

قال : كلا ! والكلام ده قوله لغيرى ! وأنا لا أطيق الجمال الذى لا أستطيع أن أمد له يدى !

وتركنى فى كابرى . وسبقنى إلى نابولى . واضطررت أن أختصر راحتى — وما كان أحوجنى إليها — وأن ألحق به .

ومن نابولى ذهبنا إلى روما .. ولكننا لم نكد نستقر فى روما الخالدة مهد الفن والشعر والجمال حتى أعلن صاحبي — بعد يومين اثنين — أنه قد انتهى من مشاهده كل ما يستحق المشاهدة فى روما ! وأنه يحسن بنا أن نستأنف الرحيل ..

انتهى من مشاهدة روما بعد يومين اثنين ! مع أن هذه أول مرة يزور فيها روما ..

وأنا قد أمضيت فى عام ١٩٣٢ أسبوعاً كاملا فى مشاهدة متحف الفاتيكان وحده ! ومع ذلك لم أر كل ما كان ينبغى أن أراه !

والكوليزيوم والكابيتول والفورام ومقابر شهداء المسيحية الأول .. والمتاحف العديدة التى تغص بها أغنى مدينة فى ثروة وتراث الفنون !

ولكن صاحبي ألح فى أن نستأنف السير . لأن روما بلد قديم مملوء بالمقابر . وهو ما يبعث الكآبة فى نفسه !

وقطعت إقامتى فى روما . وانطلقنا بالسيارة . وكان يقودها بنفسه . يقطعنا المرحلة من روما إلى جنوا ، وهى أكثر من خمسمائة كيلو متر فى نهار واحد .

وأشهد أن صاحبي هذا من أمهر من عرفت فى قيادة السيارة ، بل هو لا يقل مهارة عن سائقى السيارات فى جبل لبنان ، وهم الذين

اشتهروا ببراعتهم فى قيادة السيارة فى طرق الجبال !

وقيادة السيارة فى طريق مستو شيء وقيادتها فى طرق الجبال شيء آخر !

وتصور طريقاً لا يزيد عرضه على أربعة أمتار . وقد تنقص .. وإلى يمينك جدار من الصخر — هو الجبل — يرتفع مئات الأقدام ، وإلى يسارك هاوية تهبط مئات الأقدام إلى الوادى السحيق ..

هذا والطريق يتلوى كالثعبان فلا تستطيع أن تمشى فى خط مستقيم أكثر من أمتار قليلة .. ثم يتلوى الثعبان إلى اليمين أو إلى اليسار .. أو يتسلق هضبة .. أو يهبط بك فجأة .. وعلى الذى يقود السيارة أن يكون حديد البصر وأعصابه من حديد ! وألا ينظر إلى أسفل وإلا خيف عليه من الدوار ! وأن تكون إحدى يديه على عجلة القيادة .. ويده الأخرى تنتقل بين مفاتيح السرعة ، وقدماه بين ضاغط البنزين وبين الفرامل !.. فى كل لحظة خطر إن هو تردد أو شرد ..وانحراف بسيط فى تقدير دائرة المتعرجات — ويسمونها الأكواع فى لبنان — قد يهوى بالسيارة وركابها إلى الهوة السحيقة !

ولكن المناظر كانت رائعة ! وقد كسا الربيع إيطاليا بأبهى حلل الجمال ..

مياه البحر تضىء من بعيد إلى اليسار ..

والثلوج لاتزال تكلل هالات الجبال ..

وأشجار وأزهار الجبل طول الطريق . وكأننا نخترق حديقة غناء لا أول لها ولا آخر ..

وكنا إذا اخترقنا شارع إحدى قرى الجبال خرج صغار القرية يلوحون لنا بأيديهم ، أو يرسلون لنا على أطراف أصابعهم الصغيرة قبلات فى الهواء !

وقلت لصاحبي : ليت أحدهم يقذفنا بطوبة ! فقد اشتقت إلى قرى مصر ومن فيها وما فيها !

وأمضينا الليل فى إحدى ضواحى جنوا ..

وفى الصباح استأنفنا السير ووصلنا إلى مونت كارلو عند الظهر .

وصلنا إليها قبل الموعد الذى كنا قدرناه فى برنامج الرحلة بنحو أسبوع !

وتنهد صاحبى ، ونحن ندخل البلدة الأنيقة الجميلة التى تشبه فى جمالها ودقتها « كارت بوستال بالألوان » تنهد وقال : هذا هو البلد الذى تطيب النفس لجماله وتستريح ! .. سوف نبقى هنا شهراً يا أستاذ !

ولكننى سكت ولم أرد عليه !

وبعد ثلاثة أيام فقط دخل صاحبى على يقول إن الشيطان شاطر ! وإنه يحسن بنا أن نترك هذا البلد الملعون ...

سألته : لماذا ؟

قال : الكازينو يا أستاذ ! .. أخرج من الفندق فأجد الكازينو أمامى ... وأعود إلى الفندق فأمر بالكازينو .. وإغراء اللعب شديد . وأنا لا أريد أن أعصى الله وألعب القمار !

قلت : وأين قوة إرادتك ؟ ..

قال : الكلام ده تقوله لغيرى ! . أنا أعصابى ليست من حديد !

قلت : والنهاية ؟

قال : نسافر غداً إلى باريس ...

قلت : فى كابرى لم تطق صبراً على الجمال ! وفى روما لم تطق صبراً على المقابر ودور التحف والآثار ! وفى مونت كارلو تخاف شيطان القمار ! ..

قال : نذهب إلى باريس ... ونجرب بختنا !

قلت : إذن تسافر وحدك ، لأنني لم أقم بهذه الرحلة لكي أضرب الرقم القياسي في حط الشنط ، وشيل الشنط ، وفي سرعة التنقل من بلد إلى بلد ! .. إنني متعب ، ولقد أمضيت أسبوعين وأنا أشبه بالغجر الرحل.. دائماً في الطريق .. أصبح في بلد وأمسي في بلد !

وتركني صاحبي وانطلق بسيارته إلى باريس !

وكان هذا منذ أربعة أيام ! ومن يدري ، لعله اليوم في لندن أو في مدريد !

* * *

وأعود إلى سياق الحديث ...

دخلنا مونت كارلو ، فإذا بالأعلام منكسة ، وقد ربطت إلى سيقانها شارات الحداد السود وأدركت أن البرنس لويس الثاني أمير موناكو قد توفاه الله ، فقد كنت قرأت في صحف روما أنه مريض ، وأن العلة قد اشتدت به حتى إن ولي عهده — وهو حفيده — قد تولى شئون « الملك » بالنيابة !

هذا وقد غطيت جدران موناكو ومونت كارلو وبقية قرى الإماره بالإعلانات التي ينعى فيها وزير الدولة — نعم فهناك وزير للدولة في إمارة موناكو التي هي في حجم طابع البريد — ينعى فيها إلى شعب موناكو الوفي الأمين « مولاه العظيم الراحل الكريم الذي اختاره الله لجوازه بعد مرض مؤلم طويل ، وهو في سن الثامنة والسبعين ، قضى منها ٢٧ عاماً على عرش أسرة جريمالدي ، وهو يعمل لخير شعب الإمارة بما عرف عنه من الحكمة وأصالة الرأي وحسن التدبير » .

ثم أهاب وزير الدولة بشعب موناكو أن يقابل الفجيعة بشجاعة وجلد ، وأن يلتزم فروض الحداد طول الأسبوع الذي سوف ينقضي قبل الاحتفال بتشييع جثمان الأمير الراحل إلى مثواه الأخير !

ومن فروض الحداد أن يبطل عزف الموسيقى – حتى من الراديو – طول الأسبوع .

ووضع رعايا إمارة موناكو شارات الحداد على أذرعهم أو فى عرى ستراتهم ، وأقفلت الكاباريهات أبوابها ..

ولأول مرة منذ ٦٠ عاماً – أى منذ تشييد الكازينو وافتتاحه فى عام ١٨٨٩ – أقفل كازينو الميسر ذو الشهرة العالمية أبوابه ..

أقفلها ولكن ليومين اثنين ..

يوم الوفاة .. الاثنين ٩ مايو ، ويوم تشييع الجثمان .. الثلاثاء ١٧ مايو .

وكان الأمير الجديد – واسمه البرنس رانييه – يريد أن يغلق الكازينو أبوابه طول الأسبوع ، أى إلى ما بعد الاحتفال بدفن الأمير الراحل ، ولكن مجلس الدولة اعترض ، والحكم فى إمارة موناكو يجرى على سنن الدستور !!

وقال المجلس فى تأييد اعتراضه إن خزانة موناكو لا يمكنها أن تحتمل خسارة نصيبها من أرباح كازينو القمار لمدة أسبوع ! .. وإن المرحوم نفسه ما كان ليوافق على إغلاق الكازينو ، ودللوا على صدق قولهم بأنه لما توفى البرنس ألبرت أبو المرحوم اقترح بعض رجال البلاط أن يغلق الكازينو أبوابه يوم الوفاة .. ولكن لويس الثانى العظيم قال قوله الحكيم المشهور وهو أن الحزن على فقد أعزائنا أمر طبيعى ، ولكن الحزن مهما بلغ لا ينبغى أن ينسى الحاكم مصلحة الدولة ومصلحة الرعية ، ومصلحة الدولة والرعية هى فى أن يبقى كازينو القمار مفتوح الأبواب !

وكانت حجة مجلس الدولة قوية لا ترد ....

ومن هنا اكتفى الأمير رانييه بإغلاق الكازينو يومين اثنين حداداً على المرحوم !

والأمير الجديد – وقد اتخذ لنفسه اسم رانييه الثالث – فى السادسة والعشرين من عمره ، وهو ضابط – أو كان – فى الجيش الفرنسى وقد حارب فى صفوف الحلفاء فى معارك ١٩٤٤ فى فرنسا ، وأنعم عليه بعدة أوسمة حربية .

وهو حفيد الأمير الراحل ، ووالدته البرنسيس شارلوت كانت مشهورة بحبها للأدب والفنون ، وكان لها أصدقاء كثيرون بين رجال الصحافة ، وكثيراً ما استضافتهم فى قصرها بمونت كارلو .

وصادر أمس بوليس موناكو أعداد بعض الصحف الإنجليزية ، ومنها الديلى تلغراف ، والديلى إكسبريس لأنها نشرت – بمناسبة تولية البرنس رانييه الثالث عرش إمارة موناكو – بعض مغامراته أيام كان يطلب العلم فى إنجلترا وفى فرنسا ! .. كما أنها قالت إن هناك من يطالب بعرش موناكو ، ويزعم أنه أحق من الأمير الجديد بعرش أسرة « جريمالدى » وإن الأمير رانييه قد يواجه فى مستهل عهده مصاعب وقلاقل ... إلى آخره !

ومن هنا ترون أن إمارة موناكو تلجأ إلى مصادرة الصحف فى بعض الأحوال ، برغم أن الحكم فيها شورى ، وعلى سنن الدستور !

وكان الأمير الراحل لويس الثانى تزوج بعد أن جاوز سن الستين ممثلة فرنسية كانت تعمل فى « الأوبرا كوميك » ولوى يومها شيوخ الإمارة شفاههم ، ولكنهم سكتوا احتراماً للأمير .

ويتساءل اليوم « حنابلة » موناكو : هل يأذن الأمير الجديد لهذه الممثلة – أرملة جده – بالبقاء فى قصر الإمارة ، أو يعيدها إلى بلدها باريس بعد أن يربط لها معاشاً شهريًّا من إيرادات البكاراه والروليت والشمان ده فير !

وازدحمت مونت كارلو طول الأسبوع ازدحاماً لم تعرفه فى أوج

موسم الشتاء . فقد أقبل عليها مئات ومئات لكى يشهدوا الاحتفال بجنازة لويس الثانى . وقد خلعت عليه مرة إحدى المجلات الإنجليزية لقب « حامى حمى القمار » !

وفى المساء السابق على يوم تشييع الجثمان ازدحمت قاعات كازينو الميسر بأعضاء الوفود الرسمية الحكومية والهيئات التى أقبلت لتسير فى موكب الجنازة ، وبينهم عدد كبير من ضباط الجيش والأسطول الفرنسى .

ونشط اللعب على موائد الروليت والبكاراه !

ومن ربح ترحم على الأمير الراحل ... أما الذين خسروا .. فالله يتولى حسابهم على ما فاهوا به فى حق الأمير !

* * *

واستمر احتفال الجنازة ثلاث ساعات كاملة . من منتصف العاشرة صباحاً إلى منتصف الأولى بعد الظهر . بين الصلوات والدعوات والتراتيل والأناشيد وحرق البخور . هذا والمدعوون والمشيعون واقفون على أقدامهم ... وأجراس كنائس الإمارة — موناكو ومونت كارلو وبقية القرى — تقرع ..

والمدفع الوحيد الذى تملكه دولة إمارة موناكو — وهى لا تملك سواه لأنها من الدول المحبة للسلام وكانت بين أول من لبوا الدعوة إلى تخفيض السلاح — هذا المدفع الوحيد ، وهو موضوع فى برج قائم على صخرة موناكو ، كان يطلق مرة فى كل خمس دقائق أثناء الساعات الثلاث ..

وكانت هناك فى ميناء مونت كارلو طرادة فرنسية اشتركت مع المدفع المذكور فى تحية الجثمان ببعض الطلقات ! كما أن طائرتين فرنسيتين حلقتا فوق الإمارة فى أثناء سير موكب الجنازة .

وإمارة موناكو تحت الحماية الفرنسية ، كما أن أميرها الراحل وأميرها

الجديد كلاهما كان ضابطاً بالجيش الفرنسى .

وقد حمل نعش الأمير الراحل إلى مثواه الأخير أربعون اختيروا من أبناء أعرق أسرات موناكو ، وكانوا يرتدون الثياب التاريخية التقليدية السوداء اللون التى يرتديها « طائفة إخوان الرحمة النادمين » ..

ولما أنزل النعش إلى اللحد نفخ البورى نوبة الوداع ...

ولعل أكثر الناس حزناً على وفاة الأمير لويس الثانى هم طائفة موظفى الفنادق والكازينو من جرسونات و « كروبييه» وصرافى النقود ، فقد كان غفر الله له يقول دائماً إن حياة مونت كارلو متوقفة على إقبال السائحين ولعب الميسر ، وكلا الأمرين يتوقف نجاحهما على حسن استقبال ومعاملة السائحين . ومن هنا كان كثير العطف والحدب على موظفى الفنادق والكازينو ، حريصاً على إرضائهم حتى يقبلوا على تأدية واجباتهم بنفس راضية !

وثلاثة أرباع عدد الذين شيعوا الجنازة كانوا من هذه الطوائف : الجرسونات و « الكروبييه » وصرافى النقود !

* * *

والغلاء فى مونت كارلو لا يدانيه غلاء فى أى بلد فى العالم . فطبق الحساء « السادة » وطبق لحم مشوى « بفتيك » أوما أشبه ونصف زجاجة ماء معدنى هذا الوجبة تكلف ألف فرنك أى جنيها فى بعض المطاعم !

وهذا طعام المرضى الذين يتبعون مثلى « الرجيم » الخاص ! فما بالك بالأصحاء الأقوياء سليمى المعدة والأمعاء !

ولهذا فإن معظم رواد مونت كارلو هذا العام هم المحظوظون أبناء بلاد العملة الصعبة ، مثل سويسرا والسويد وأمريكا ... وخصوصاً أمريكا الجنوبية !

وهنا كذلك عدد لا بأس به من السيدات والسادة الإنجليز ، وهم

يمرحون ويطعمون ويشربون فى أفخر الفنادق والمطاعم . ويلعبون فى الكازينو ...

* * *

كنت رأيت هنا منذ عامين شاباً سورياً من أعرق أسرات سورية . وكان أبوه — وقد توفى إلى رحمة الله — رئيساً للدولة السورية فى وقت ما ...

وكنت سمعت عنه روايات وحكايات ليس فيها ما يشرف !

وقد شكا لى يومئذ « بارمان » فندق ده باريس أن الشاب المذكور اقترض منه خمسة وعشرين ألف فرنك .. وغادر مونت كارلو دون أن يردها .. والمبلغ المذكور كان يساوى يومئذ أكثر من خمسين جنيهاً . وهو مبلغ كبير بالنسبة « لبارمان » .

وأخيراً وقع الفتى ! وكان لابد له أن يقع ! فقد أعطى شيكاً فى باريس بدون أن يكون له رصيد فى البنك المسحوب عليه الشيك .. وحكم عليه القضاء الفرنسى بالحبس عشرة أشهر !

* * *

ما أعجب باريس . . وأهل باريس !

باريس — يونية ١٩٤٩ :

العالم كله يتلفت إلى باريس وينصت إلى ما تذيعه باريس عن مؤتمر وزراء خارجية الدول العظمى الأربع .. وصحف العالم توفد مندوبيها إلى باريس ليوافوها بأخبار الأربعة العظام ..

وصحافة العالم — في الغرب والشرق — تنشر على رأس صفحاتها الأولى وبالبنط الكبير أخبار المؤتمر ، وهل يتمخض اجتماع وزراء خارجية كتلتى الغرب والشرق عن سلام أو ما يشبه السلام ... أو عن استئناف الحرب الباردة التى قد تنقلب — بعد عام أو عامين — إلى حرب نار وضرام ! .. إلا باريس فإنها لا تحفل ! وأهل باريس لا يحفلون !

وصحافة باريس — الشعبية والأوسع انتشاراً — تنشر بعرض رأس صفحاتها الأولى وبالبنط الكبير نتيجة مباراة كرة القدم بين فرنسا وسويسرا ، وأن الأولى فازت على الثانية بأربع إصابات ضد إصابتين !! وأن القيود على بنزين السيارات قد رفعت !! وأن الجواد « ياجيرا » قد ربح جائزة ديانا فى سباق شانتيي ، ودفع ربحاً قدره ٣٨٧ فرنكاً عن العاشرة الفرنكات.. وأن «جرمين لانفواز » قد صفحت عن عشيقها الذى حز عنقها بموسى حادة ! .. وكان آخر ما سمعه الواقفون حول سريرها فى المستشفى : « لقد قتلنى لأنه يحبنى ! .. وأنا أحبه ... أوه كم أحبه »

ألا ما أقتل الحب !

واحتلت هذه العبارة الصفحات الأولى فى صحف باريس ! ..

وأما أخبار مؤتمر وزراء الخارجية فقد نشرت على رأس عمود واحد في إحدى الصفحات الأخيرة !!

ألا ما أعجب باريس ! وأهل باريس !

الربيع والشتاء :

وقضيت أمسية أمس في أحد مقاهي الشانزلزيه ..

ورواد المقاهي في القاهرة يتحدثون عن الساسة والسياسة . وقد يتحدث بعضهم عن الغلاء والعلاوات والدرجات .. ولكن زبائن مقاهي باريس لا يتحدثون في شيء من هذا !

على مقربة مني كان يجلس شيخ وفتاة ! ..

الشيخ أنيق الملبس ، أصلع الرأس . حاد البصر . وفي عروة سترته « الزر الأحمر » وهو شارة وسام « اللجيون دونور » من درجة « قومندان » !

والفتاة في نحو العشرين من عمرها ! سمراء . فاتنة ! .. حلوة . وفي عينيها « شقاوة » !

الشيخ جاوز الستين ، وهو كما يبدو من مظهره من رجال الدولة . أو من رجال الأعمال الناجحين ! .

ونحن جميعاً نعرف « معنى » العلاقة التي تربط بين شيخ في الستين من عمره وفتاة لاتزال في حدود العشرين !

وفي كل بلد من بلاد العالم يحن الشتاء إلى الربيع . ويلتمس ابن الستين الدفء بين ذراعي فتاة العشرين . ولكن من وراء ستار . أو في خلوة أو مأمن من عين الفضول !

وما أكثر شيوخ القاهرة الذين يهوون فتيات الربيع . ولكنهم أمروا

بالستر إذا ما ابتلوا فأطاعوا . ومن هنا لن تلقاهم فى الشوارع والحانات يعلنون بالقبلات عن غرامهم الأشيب المنكود !

إلا باريس ، وشيوخ باريس ! وكأنما الثورة التى انفجرت فى باريس منذ أكثر من قرن ونصف قرن ، ونادت بالحرية والمساواة ، لاتزال حتى اليوم ماضية تهدر !! وهى تنادى اليوم — أو هكذا يخيل للزائر الأجنبي —بأن من حق الإنسان أن يتساوى فى الحرية والإباحية مع الحيوان!

كان الشيخ — ابن الستين — يمسك بوجه الفتاة بين راحتيه ، ويقبلها فى فمها ، وكانت الفتاة تبتسم فى عينيه .. وأحياناً تداعبه وتلعق خده بلسانها !

وزبائن المقهى من أهل باريس فى شغل شاغل ! لم يحفل منهم أحد ولم يلتفت منهم أحد إلى هذا المشهد الغرامى بين الشتاء والربيع !

ولكن سيدة أمريكية — والأمريكيون فى باريس الآن أكثر من ذباب رأس البر ورمل الإسكندرية — نفرت واقفة تحتج ! ولا شك أنها من بوسطن معقل جماعة « المتطهرين » . وقالت لولديها وأحدهما فتاة : « هلما بنا ! .. هذا أمر شائن ! »

وجذبتها ابنتها من ذراعها وهى تقول : « لقد جئنا لنرى باريس ! وهذه هى باريس ! »

وجلست السيدة الأم ، وهى ترمى الشيخ والفتاة بنظرات يتطاير منها شرر الفضيلة !

أما الشيخ الذى يحلى عروة سترته بشارة وسام جوقة الشرف فإنه لم يبال ولم يلتفت ! ولعل فى ذمته ودينه أن جميع هؤلاء الأجنبيات والأجانب .. مجانين ؟ !

وأما الفتاة الفرنسية فقد ابتسمت ، وخيل إلىّ أنى لمحت فى عينيها غمزة خاطفة للفتاة الأمريكية ، وكأنها تريد أن تقول : « ماذا تريدين ؟

إن أعباء الحياة ثقيلة ! .. والشيوخ يقنعون بالقليل ويعطون الكثير ! .. ولقد اخترت شيخى هذا لأن المال لا يوجد فى جيوب الشباب ! »

بلزاك بين شهوة النساء وشهوة المجد :

وانطلق « مكبر الصوت » الموضوع على رأس البار يذيع الأخبار من محطة الإذاعة الفرنسية .

بدأ المذيع بأخبار الأربعة المجتمعين فى « سراى الورود » ..

واستمر أهل المقهى فى حديثهم ! لم يحفل منهم أحد بأخبار الأربعة .

ومضى المذيع .. إلى أن وصل إلى الأخبار الداخلية ..

جماعة أصدقاء بلزاك سوف يحتفلون فى يوم كذا بقاعة كذا بمرور مائة عام على مولد الكاتب الأشهر المذكور .

ولهذه الجماعة أو الجمعية فروع فى معظم مدن فرنسا .

وأساس شهرة بلزاك هو أنه كان أوفر كتاب فرنسا محصولا ، وأغزرهم إنتاجاً . فكان يخرج فى كل أسبوعين قصة طويلة ! وفى كل شهر كتاباً !

ومال الشيخ على فتاته يقول لها : « كان بلزاك موزع العاطفة بين النساء والكتابة ! . . أو تتنازعه شهوتان ! شهوة النساء وشهوة المجد ! وكان إذا قضى ليلته بين أحضان امرأة أصبح نادماً يعض بنانه أسفاً ويقول : هأنذا قد ضيعت عملا خالداً على الأجيال القادمة ! »

وقالت الفتاة الشقية : « لماذا ؟ إننى لم أفهم ! »

وضحك الشيخ وقبلها فى أذنها وقال : « لا تفهمين؟ .. كان بلزاك يصبح بعد ليلة غرامه متعباً منهوك القوى لا يستطيع الكتابة لعدة أيام ! »

وقالت الفتاة بدلال : « آه ! أوه ! »
ثم ألقت فى أذن الشيخ بهمس لم أسمعه !!
وضحك الاثنان !

زهور الشر :

وانطلق المذيع فى أخباره الداخلية ..
« قضت محكمة النقض والإبرام بإلغاء الحكم الذى كان صدر ضد الشاعر بودلير فى يوم ٢٠ أغسطس عام ١٨٥٧ » .

وهو حكم طريف رد على الشاعر المذكور اعتباره بعد وفاته باثنين وثمانين عاماً !

وها هى ذى القصة :
كان الشاعر بودلير نشر فى عام ١٨٥٧ ديوان شعر عنوانه « زهور الشر Loc Flurc du Mal » . وقدمته النيابة العمومية يومئذ للمحاكمة بتهمة نشر ما فيه إخلال بالآداب العامة .

وحكم عليه القضاء بغرامة قدرها ثلثمائة فرنك ، أرى ما قيمته ١٢ جنيهاً فى ذلك الوقت !

وقد أثر هذا الحكم فى « سمعة » الشاعر بودلير . وجعل الناشرين فى ذلك العهد يترددون فى نشر دواوين شعره خوفاً من أحكام الغرامة والتعويض التى قد تصدر ضدهم .

وعبثاً حاول بودلير إلغاء الحكم المذكور . وأخيراً لجأ إلى الإمبراطورة أوجينى ، زوجة نابليون الثالث ، ورفع إليها مظلمة واستعطافاً . وكل ما أمكن الإمبراطورة أن تصنعه للشاعر هو أن الغرامة خفضت إلى خمسين فرنكاً ، أى إلى جنيهين !

ومات بودلير . ومرت الأعوام ...

وفى عام ١٩٤٦ صدر قانون يخول المحاكم الفرنسية حق إعادة النظر فى الأحكام الصادرة ضد المؤلفين فى المواد الخاصة بالآداب والأخلاق على شرط ألا يعاد النظر فى الحكم إلا بعد مرور عشرين عاماً على تاريخ صدوره !

والحكمة فى ذلك أن ما عُدّ إخلالا بالأخلاق والآداب العامة منذ عشرين عاماً قد لا يعد اليوم كذلك !

ومنذ بضعة أشهر التمست جمعية رجال الأدب إعادة النظر فى قضية الشاعر بودلير .

ونظرت القضية . ووقف ممثل النيابة العمومية يلتمس من هيئة المحكمة إلغاء الحكم ويقول : « يوم صدر الحكم قال بودلير عن قضاته : « لقد رأيت قضاتى ، وعمرى ما رأيت وجوهاً أقبح خلقة من وجوههم ، ولاشك أن قلوبهم لا تختلف عن وجوههم ! »

وابتسمت هيئة المحكمة .

ومضى ممثل النيابة العمومية يقول : « ولكننى أعرف وأنا ألتمس منكم إلغاء الحكم أن القضاء لا يعرف الحقد ولا الضغينة مهما تكن قسوة الوصف الذى رماه به بودلير » .

وحكمت المحكمة بإلغاء الحكم ..

وهكذا رد القضاء على بودلير اعتباره بعد ٨٢ عاماً من صدور الحكم المذكور !

بطلة القصة :

وفى معرض الحديث عن الأدباء والشعراء أذكر أنه قد أقيمت هذا الأسبوع حفلة تأبين للكاتب البلجيكى المشهور ميترلنك الذى توفى

فى الشهر الماضى بمدينة نيس .

وميترلنك معروف بقصصه عن الطيور والحيوان ، ومن أشهرها – فى مصر على الأقل – قصة العصفور الأزرق ..

ويروون عنه الحكاية الآتية :

سمع أحد كبار مخرجى السينما فى هوليوود عن ميترلنك وشهرته وصيته كقصصى وكاتب نابه ، فكتب إليه يعرض عليه خمسين ألف دولار ثمناً لقصة يضعها للسينما .

وأجاب ميترلنك الطلب .

وبعد شهرين أرسل القصة المطلوبة إلى مخرج السينما فى هوليوود .

وفتح المخرج الطرد فوجد بضع مئات من الصفحات المكتوبة على (التيبرايتر) أى الآلة الكاتبة .

ولم يكن عنده وقت لتلاوة القصة يومئذ .

ولكنه جلس وكتب « شيكاً » بالمبلغ المتفق عليه وهو خمسون ألف دولار ، وأرسله إلى ميترلنك ..

وبعد بضعة أسابيع تذكر المخرج قصة ميترلنك – وكان خالياً يومها من العمل – فأخرجها من درج مكتبه ، وأغلق على نفسه الباب ، وأصدر أمره ألا يدخل عليه أحد لأنه مشغول !

وبعد نحو ساعة فزع مرءوسوه وموظفوه عندما رأوه خارجاً من غرفة مكتبه وهو يشد شعر رأسه ويصيح بما معناه : الحقونى ! يا أنا مجنون . يا ميترلنك هو اللى مجنون !

سألوه : لماذا ؟

قال : الراجل عمل بطلة الفيلم .. نحلة !!

« المحظوظ » :

ثم أعلن المذيع خبر وفاة مسيو ليون فولتيرا ...

وهنا أصغى المقهى وجميع من فيه ! وراحوا يتتبعون باهتمام صوت المذيع وهو يروى تفاصيل الخبر ، ومنها أن مسيو ليون فولتيرا كان أصيب بهبوط فى القلب منذ بضعة أسابيع ، وأقام حوله كبار الأطباء ... وقد تحسنت صحته أول أمس شيئاً ما حتى إنه تمكن من متابعة وصف سباق دربى أبسوم (إنجلترا) فى الراديو .. ولكنه أصيب بأزمة فى المساء قضى على أثرها !

وما إن انتهى المذيع حتى انطلق رواد مقهى الشانزلزيه يتحدثون عن « المرحوم » فولتيرا ... ولقبه « المحظوظ » ، فقد بدأ حياته « خادما » وقضى نحبه وهو من أصحاب مئات الملايين !

قامت الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٤ ، وكان ليون فولتيرا يومئذ يعمل خادماً فى صالة أوليمبيا يكنس وينظف المقاعد ! ! وفى المساء يرتدى سترة خاصة ذات أزرار نحاسية ويقف بباب الصالة يبيع البرنامج للمتفرجين !

وكان أصدقاؤه الذين عاصروه فى تلك الأيام منذ نحو ٣٥ عاماً يضحكون ويمزحون معه — بعد أن أثرى وأصبح من أصحاب الملايين — ويذكرونه كيف كان ينحنى مثل رقم ٨ ، ويشكر كلما نفحه أحدهم ببقشيش قدره صلديان .. أى أربعة مليمات !

وكانت المليمات الأربعة لها قيمة فى تلك الأيام !

فرصة للحظ :

وحدث بعد قيام الحرب أن اقتربت الجيوش الألمانية من باريس . واستعدت الحكومة الفرنسية للانتقال إلى مدينة بوردو ..

وكان بين الأوامر التى أصدرتها الحكومة أمر بإغلاق جميع المسارح وصالات الموسيقى واللهو فى باريس . فقد كان الوقت جد خطير . والعدو على الأبواب !

وأغلقت المسارح والصالات أبوابها .. ومن بينها صالة أوليمبيا ..

ثم اندحر الألمان فى معركة المارن . وارتدوا عن أبواب باريس وزال الخطر .

وبعد بضعة أشهر عادت الحكومة وألغت أمرها الأول . وسمحت للمسارح وصالات الموسيقى باستئناف العمل .

ولكن معظم أصحاب المسارح والصالات تردد وأحجم خوفاً من أن يتعاقد هنا وهناك مع كواكب ومؤلفين وموسيقيين . وينفق على إخراج رواية أو استعراض موسيقى مبالغ طائلة ثم تعود الحكومة وتصدر أمراً من جديد بالإغلاق !

ذلك لأن الجيوش الألمانية كانت لاتزال فى أرض فرنسا . . والخطر لم يزل تماماً !

ولكن ليون فولتيرا .. أو فولتيرا المحظوظ . انتهز الفرصة واقترض من بعض أصدقائه سبعة آلاف فرنك — وهى أقل من ٣٠٠ جنيه بعملة تلك الأيام .. وأقل من سبعة جنيهات الآن ! — وبهذه الآلاف السبعة استأجر صالة أوليمبيا التى كان يعمل خادماً فيها .

وأخرج على مسرحها فى عام ١٩١٦ استعراضاً موسيقيا جديداً فى نوعه ..

ويروى عنه أنه جمع كواكب الصالة وراقصاتها وموسيقييها وقال لهم يومئذ ما معناه : « ليس فى مقدورى الآن أن أدفع لكم الأجور التى تناسب مقدرتكم ومكانتكم . ولكنى أعرض عليكم ربعها .. مؤقتاً . وهذا خير لكم من البطالة . ولكن إذا نجح الاستعراض فإنى أعدكم برفع مرتباتكم إلى ما كانت عليه .. بل أكثر ! »

ثم قال ما معناه — ومعذرة للصديق محمد عبد الوهاب — قال إنه ينتظر من كل فرد بينهم أن يؤدى عمله على أحسن ما يمكن أن يؤديه .. « ويانعيش سوا يا نموت سوا » !!

ونجح الاستعراض نجاحاً مدهشاً .. ومن يومها بدأ نجم ليون فولتيرا يلمع ساطعاً فى سماء المسرح والموسيقى .

ومضى من نصر إلى نصر : فاشترى كازينو دى بارى فى عام ١٩٢٢ ، وتعاقد مع موريس شفالييه ، ولم يكن يومئذ كوكباً كبيراً لامعاً كما هو الآن ... ونجح موريس شفالييه !

ثم تعاقد فولتيرا مع « مستنجت » .. ونجحت مستنجت .

ومن بعدها الشقيقات « دوللى » — وهذه أسماء لامعة فى سماء المسرح الفرنسى .

ثم ابتاع ملهى « البروكيه » أى الببغاء ..

ثم افتتح « لونابارك » ومن بعده الليدو فى الشانزلزيه !

ولم تقبل الحرب العالمية الثانية إلا وليون فولتيرا من أصحاب مئات الملايين !

وبعد انتهاء الحرب الأخيرة صفى فولتيرا كافة أعماله المسرحية . وباع أسهمه فى المسارح ودور الرقص واللهو والغناء .. وأقبل على ناحية أخرى وهى جياد السباق ، فأنشأ اصطبلا يضم نخبة من الجياد الأصيلة . ولم يكن ليتردد فى أن يدفع بضعة آلاف من الجنيهات ثمناً لمهر أو مهرة

أصيلة لا يزيد عمرها على عام وبضعة أشهر .

وفازت جياد فولتيرا . وربح أكثر من جائزة كبيرة من جوائز السباق فى باريس .

ولكن مناه أو مطمحه الأكبر كان الفوز فى سباق « الدربى » المشهور .

وفى هذا العام استعد للسباق المذكور بجوادين أصيلين من خيرة جياد السباق فى فرنسا ، وهما « أمور ديك » و « فال دريك » ، وقد فاز كل منهما بأكثر من جائزة كبيرة فى سباقات باريس . وكان الأمل كبيراً جداً فى أن يفوز أولهما « أمور دريك » فى سباق الدربى ويحقق لصاحبه حلمه ومناه !

انفعال مخيف :

وقبل أن يحل أسبوع سباق أبسوم – ومن برنامجه سباق الدربى – اضطر مسيو فولتيرا إلى ملازمة الفراش بسبب ضعف القلب !

وقام إلى جانبه كبار الأطباء ، وعلى رأسهم الطبيب المشهور الدكتور موريس راسين . وكان أكبر ما يقلق بال الأطباء هو حالة فولتيرا العصبية فقد كان لا يفتأ يردد اسمى جواديه وسباق الدربى ... ويتحسر لأن مرضه يحول دون سفره إلى إنجلترا ومشاهدة السباق بنفسه ، ومشاهدة فوز جواده « أمور دريك » .

وأقبل يوم السباق وأعصاب فولتيرا تزداد سوءاً على سوء .

وعقد الأطباء اجتماعاً « كونصلتو » تشاوروا فيه هل يضعون إلى جانب فراشه « راديو » يسمع منه وصف سباق الدربى مرحلة بعد مرحلة ..

ولكن ! . ألا يخشى عليه وقلبه من الضعف كما هو أن يصيبه الانفعال

بأزمة تقضى عليه! وإذا منعوه من الإصغاء إلى الراديو .. أفلا يمكن أن يقتله الشك وطول الحيرة والانتظار!

لقد كانت حقاً مشكلة! وصرح الدكتور موريس راسين لمندوبي الصحف بأن هذه أول «حالة» من نوعها تقابله في حياته الطبية الطويلة!

وأخيراً سمحوا له بالراديو!

وأول أمس جرى سباق الدربي المشهور .. ونهض فولتيرا في فراشه نصف قاعد يصغي إلى المذيع .

وأقبلت الجياد على نهاية الشوط .

وجواده أموردريك في الطليعة .

وعند شارة الانتهاء .. التبس الأمر على حكام وقضاة السباق أي الجوادين هو الفائز الأول؟!

أهو الجواد الفرنسي أمور دريك؟ أو الجواد الإنجليزي تيس؟

لابد أن يفحصوا الصورة الفوتوغرافية التي تلتقط دائماً لحظة وصول الجياد إلى شارة الانتهاء ..

ومرت ثوان .. امتدت إلى دقائق . وفولتيرا قائم في فراشه يصغي وينتظر! ووجه الطبيب أشد اصفراراً — خوفاً ورحمة — من وجه المريض.

وأعلن المذيع أن الفائز الأول هو الجواد .. تيس . وقد سبق الجواد أمور دريك بما طوله أنف واحد .

وهو اصطلاح يعرفه رواد السباق .

وابتسم فولتيرا حسرة .. واسترخى في فراشه وهو يهمس : فولتيرا المحظوظ ! ... إن كنت محظوظاً حقاً فليمد الله في عمري عاماً واحداً حتى أشهد سباق الدربي العام القادم .. ويومئذ لا بد أن أفوز!

ولكنه قضى نحبه بعد ذلك بساعات!



أحاديث من باريس

باريس — يونية ١٩٤٩ :

ذهبت أتناول طعام العشاء فى « مكسيم » ، ولم أكن أعرف أن المطعم العالمى الشهرة يحتفل بيوبيله الذهبى ، وإلا لما ذهبت دون أن أحجز مقدماً مائدة صغيرة أجلس إليها .

وأنقذ الموقف روبرت نائب رئيس الخدم . قال وهو يهز يدى مصافحاً : إن المرء يعود دائماً إلى باريس ...

قلت : أليس كذلك ! ... هل من مكان خال ؟

قال : وحدك ؟

قلت : نعم .. لسوء الحظ !

قال : بل لحسن الحظ وإلا لما أمكننى أن أدبر لك مقعدين .

وسار روبرت أمامى إلى مائدة صغيرة فى أحد الأركان .

لم تكن خير مائدة ، ولكن لم يكن هناك خيار .

وتلفتّ حولى .. فقد كان مضى نحو عامين على آخر مرة تناولت فيها الطعام فى مكسيم !

إلى تلك المائدة التى فى الصدر كان يجلس دائماً بطرس ملك يوغسلافيا وزوجته الحسناء « هيلانة » التى لم يحتفل بتتوجيها ؛ ومن هنا اختلف رأى ثقات البروتوكول هل ينادونها بلقب صاحبة الجلالة ... أو صاحبة السمو الملكى ؟ !

ولقد هجر الملك الشاب وزوجته باريس ورحلا إلى الولايات المتحدة واستوطناها منذ عام .

وقيل فى بيان السبب إن رصيد الملك بطرس فى بنوك فرنسا نفد ... وإن الإعانة المالية التى كانت تمده بها الحكومة البريطانية قطعت . فلم يجد بدا من النزوح إلى أمريكا حيث ترك له أبوه الملك إسكندر بضع مئات من ألوف الدولارات فى مصارفها .

والملوك ... حتى الملوك السابقون . يجب أن يعيشوا فى باريس كملوك وللألقاب تكاليفها .

أما فى أمريكا الديمقراطية ، وحيث ينادون رئيس الدولة «مستر رئيس» ويسمون كل ملك « مستر ملك » فمن الممكن أن يعيش الملك السابق كأى فرد من أفراد الرعية !

وقيل كذلك .. إن الملك بطرس لم يرحل إلى أمريكا إلا يوم تحرجت الحالة الدولية إلى حد الخطر ، وخيف أن تنشب الحرب فجأة ..

وهنا أقبل زبون من زبائن مطعم مكسيم .. البارون موريس ده روتشيلد الذى عجزت ثورات وانقلابات العالم فى ربع القرن الأخير أن تنال منالا من ثروته . فلا الشيوعية ولا النازية فى ألمانيا أولا والنمسا ثانياً استطاعت أن تقتطع أى نصيب يذكر من ثروته ..

ورجال المال العالميون يسمونه الزئبق !

أقبل ومعه صاحبته ، وقد سار بين يديه مسيو ألبرت بنفسه . ومسيو ألبرت هو رئيس الخدم فى مكسيم ! وهو مقام عظيم ! وهو لا يمشى إلا بين يدى الملوك والأمراء .. ومن فى حكم الملوك والأمراء .. وملوك المال عند مسيو ألبرت أثبت مقاماً على الأقل — ولا أقول أعلى مقاماً — من الملوك السابقين !

وكنت رأيت منذ عامين فى مونت كارلو فتاة شقراء وتبارك الخالق فيما خلق .. رأيتها فى قاعات الكازينو وحول الموائد تلعب وتخسر فى دقائق

معدودة مئات ألوف الفرنكات دون أن يهتز لها رمش .. وكنت أعجب من تكون ! ..

وتشاء المصادفة أن أدخل ذات مساء بعد ذلك بنحو شهر مطعم مكسيم مع الصديق سليمان نجيب .. وأن أقص عليه حكاية فتاة مونت كارلو ..

وبينما أنا فى سرد الحكاية .. إذا بها تدخل !

وأشد ذراع سليمان وأهمس : « انظر ! .. ها هى ذى ! »

وكانت تستند إلى ذراع البارون موريس ده روتشيلد ! وفهمت لحظتها كيف كانت الحسناء تخسر على موائد اللعب مئات الألوف دون أن يرتجف لها رمش عين !!

ورأيت — منذ شهر واحد ، وفى قاعة الطعام ، وفى فندق ده باريس فى مونت كارلو — البارون اليهودى نفسه ومعه فتاة سمراء ! أما الليلة فى مطعم مكسيم فقد كانت صاحبته .. شقراء !

وقلت للساقى : لماذا يغيرهن بهذه السرعة ؟

وأجاب الرجل وهو ينظر إلى ده روتشيلد وصاحبته : إنه المال يا سيدى ... والشيخوخة ، فهما يورثان النهم !!

وموريس ده روتشيلد جاوز السبعين من عمره !!

* * *

واحتفل مطعم مكسيم بمرور خمسين عاماً على افتتاحه ، فقد أنشئ فى عام ١٨٩٣ ، وكان ميعاد الاحتفال فى عام ١٩٤٣ ، ولكن باريس كانت محتلة يومئذ بالألمان !

وفكر أصحاب المطعم فى أن يقيموا الاحتفال فى عام ١٩٤٦ ، ولكن مسيو ألبرت أشار عليهم بتأجيله « لأن العالم لم يسترد بعد مرح أيام ما قبل الحرب » !

ترى هل استرد العالم اليوم مسرح الأيام الحالية ؟

وأقيم الاحتفال ، ودام أربع ليال سويّاً ..

وأقبل بعض المحتفلين والمدعوين على المطعم فى سيارات من طراز أعوام ١٨٩٠ وما بعدها ، وهى سيارات تشبه إلى حد كبير « الحنطور » ، فمقعد القيادة وعجلة القيادة تعلوان عن الأرض نحو مترين !!

وأقبلت فى الليلة الأولى من ليالى الاحتفال اثنتا عشرة من ممثلات السينما الفرنسيات ، وقد ارتدين أزياء الربع الأخير من القرن الماضى . .

وظهرت إحداهن فى ثياب « الأرملة المرحة » بطلة الأوبريت المشهورة بهذا الاسم .

ولهذا سبب وحكاية .. فمنذ نحو ٥٠ عاماً دخل مطعم مكسيم شاب فنان . وبعد أن تناول طعام الغداء اعترف للجرسون بأنه مفلس وليس فى جيبه فرنك واحد !!

ونادى الخادم صاحب المطعم .. وأقبل صاحب المطعم على الشاب المفلس يطمئنه ويطيب خاطره ويقول : « لا بأس .. سوف تدفع لى ثمن الطعام فى يوم ما .. »

ثم نفح الشاب عشرة فرنكات !

وكان الشاب المفلس هو الموسيقار الذى ذاع صيته بعد ذلك ! .. « فرانز ليهار » . وقد كتب ووضع موسيقى « الأرملة المرحة » وبين أغانيها المشهورة أغنية : « أنا ذاهبة إلى مطعم مكسيم » !

وهكذا رد الفتى جميل صاحب المطعم !

وكانت هذه الأغنية سبباً فى شهرة مطعم مكسيم !

* * *

وكان بين زبائن مكسيم فى أثناء احتلال الألمان الماريشال هرمان

جورنج . فقد كان مكسيم مطعمه المحبوب فى أثناء زياراته الكثيرة لباريس ..

ويروى خدم مكسيم الحكاية الآتية :

كان جورنج يقيم فى باريس فى أثناء اشتداد معركة بريطانيا ، وهى المعركة التى شنها سلاح الطيران الألمانى على لندن وبقية المدن البريطانية ليدمرها ، ويرغم بريطانيا على طلب الصلح والاستسلام (سبتمبر ١٩٤٠ – مايو ١٩٤١) .

وذات مساء دخل جورنج مطعم مكسيم يحف به ضباط أركان حربه ، وجلس إلى مائدته التى كانت تحجز له دائماً فى أثناء وجوده فى باريس .

وأقبل « مصوراتى » من الذين تلقاهم فى القاهرة يطوفون كل مساء بمطاعم وكباريهات الفنادق الكبرى ، ويلتقطون فى ضوء المغنيسيم ، صور كل جماعة صديقة تجلس معاً .. فى مقابل مبلغ معلوم .

والتمس المصوراتى الفرنسى من جورنج أن يأذن له بالتقاط صورته .. وأذن له جورنج !

وبعد ساعتين ... كانت الصورة — صورة جورنج وأركان حربه ومعها محضر بالحديث الذى دار بينهم — كانت فى لندن !

ذلك أن المصوراتى ، والسادة الذين كانوا يجلسون إلى المائدة المجاورة لمائدة جورنج ، كانوا جميعاً من رجال قلم المخابرات البريطانية !!

* * *

ومن زبائن مكسيم الآن رجل لم أكن رأيته من قبل ، واسمه الدكتور ستانسلاس لازوفرت . وكان له يد فى مقتل الراهب راسبوتين ! الذى كان الشرارة التى أوقدت نار الثورة الروسية فى عام ١٩١٧ .

ومقتل الراهب الروسى تاريخ قديم ، طاف بالعالم ، وترجم إلى لغات العالم كافة ، وكان موضوع مسرحيات لا عداد لها على الشاشة

وعلى خشبة المسرح . ومنها مسرحية راسبوتين لمؤلفها وممثلها الأول الأستاذ يوسف وهبي .

يقول الدكتور ستانسلاس إنه كان اتفق مع البرنس يوسوبوف على قتل راسبوتين بالسم ..

ودعا راسبوتين لتناول الطعام ، وكان الدكتور قد دس له كمية طيبة من السم فى الحلوى ..

يقول الراوى ، وهو نفس الدكتور ستانسلاس : وكان لراسبوتين خادم هندى يخلص لسيده الراهب ويحبه حبًّا شديداً . وكان هذا الخادم يشك دائماً فى أن هناك محاولات لاغتيال سيده بالسم . ومن ثم عمد إلى إعطاء راسبوتين فى كل يوم كمية تافهة ضئيلة من سم هندى .. لكى يخلق فى جسمه المناعة ضد السموم ! وهكذا أكل راسبوتين الحلوى المسمومة .. ولم يبد عليه أى أثر أو أى عرض من أعراض التسمم ! وتبادلت النظرات مع شريكى البرنس يوسوبوف .. وأخرج يوسوبوف مسدسه ، وأطلقه على راسبوتين .

ويروى الدكتور بعد ذلك كيف حمل الاثنان الجثة فى عربة من عربات الثلوج ، وألقياها فى النهر ، وكيف أخفيا آثار عجلات العربة إلى آخره ..

* * *

ويقف الآن بباب مكسيم بواب جديد ، وهو يرتدى سترة لونها أحمر قان ، وأزرارها من النحاس الأصفر .. والبواب الجديد دون الأربعين من عمره ، أشقر الشعر ، أزرق العينين ، وجيه الطلعة أو « فيه شيء ما » ..

وذات يوم أقبلت سيدة إنجليزية فى تاكسى ، وكانت السماء تمطر مطراً ثقيلا . ونزلت السيدة من التاكسى وأمسك البواب الجديد بمظلته

الكبيرة فوق رأس السيدة يحميها من المطر إلى أن دخلت المطعم ...

وبعد دقائق فوجئت السيدة الإنجليزية بالبواب يقف أمام مائدتها ويضم قدميه وينحنى أمامها . ثم يقدم لها قرطها الماسى الذى كان قد سقط من أذنها على مقعد التاكسى !

وطبعاً سرت السيدة سروراً كبيراً وأسرعت تفتح حقيبة يدها لتتناول منها بقشيشاً طيباً تنفح به البواب الأمين .. ولكن ا أجل لم يمد يده .. بل ضم قدميه معاً ! وانحنى أمامها وخرج تاركاً يد السيدة معلقة فى الهواء بالبقشيش !

وأقبل روبير نائب رئيس الخدم يعتذر للسيدة الإنجليزية عن سلوك « البواب الجديد » ويقول .. إنه « جنتلمان » ! .. والجنتلمان لا يقبل « البقشيش » .

قالت السيدة : ... جنتلمان ؟

قال : نعم ، فقد كان إلى أشهر مضت ضابطاً برتبة كولونيل فى الجيش المجرى . ثم هرب من بلاده ولجأ إلى باريس ..

* * *

ولاتزال باريس تتحدث عن زيارة البرنسيس مرغريت صغرى كريمتى الملك جورج السادس ، وكيف أنها لم تترك محلا من محال الأزياء إلا زارته واستعرضت أمامها « المانيكان » بآخر أزياء الربيع والصيف .

ثم .. لم تشتر سوى ثوبين اثنين ، أحدهما مصنوع من القطن ، والآخر من الكتان .

واعتذرت الصحف عنها بسبب « ضيق ذات اليد » لأن سير ستافورد كريبس وزير مالية إنجلترا لم يسمح لها إلا بما يسمح به القانون لأى إنجليزى عادى ، أى بخمسة وسبعين جنيهاً فى الشهر ! ولعل هذا هو السبب فى أن الأميرة الظريفة نزلت فى روما وفى باريس فى ضيافة

السفارة البريطانية . كما أنها كانت تتناول وجبات الطعام على موائد أصدقائها من كبار البريطانيين ..

ولقد بذل كل مطعم مشهور وكل كاباريه فى باريس جهده لكى تشرفه الأميرة مرغريت بزيارتها .. كما أن الصحف الباريسية أطلقت مندوبيها ومصوريها .. وذهب بعضها إلى حد أنه حجز لمندوبيه ومصوريه الخصوصيين مائدة فى كل مطعم وفى كل كاباريه من باب الاحتياط حتى إذا تصادف أن زارته الأميرة الإنجليزية . كانت المائدة معدة لجلوس مندوبيه لكى يصفوا فيما بعد للجريدة كيف كانت الأميرة تأكل ؟ وماذا أكلت ؟ وماذا قالت ؟ ويلتقطون لها صوراً من كافة الزوايا !

ولكن السفارة البريطانية كانت قد احتاطت بعد التجربة القاسية التى مرت بها البرنسيس فى إيطاليا ، والضجة التى قامت حول صورها وهى بلباس الاستحمام ..

ولهذا سدت السفارة ورجالها آذانهم عن أسئلة رجال الصحافة . وضربوا ستاراً حديدياً حقاً حول تنقلات الأميرة مرغريت !

وكل ما عرف عن سهراتها هنا أنها زارت « صناديق الليل » فى حى مونمارتر . وأمضت السهرة فى كاباريه « فلورانس » : وهو محل نظيف و« شيك » . ويعد ملتقى الطبقة الراقية فى باريس .. وكان يصحبها بعض سيدات ورجال السفارة ، وخمسة من رجال البوليس « سكوتلاند يارد » .

ويقول صاحب الكاباريه إن حاشية الأميرة احتست خمس زجاجات من الشمبانيا ! ولكن الأميرة ورجال سكوتلانديارد اكتفوا بتناول ماء فيشى !

تماماً مثل كاتب هذه السطور !

* * *

ومنذ يومين كتبت جريدة فرانس سوار تقول إن الجمهور لم يعد يحتشد عند أبواب القصور التى تعقد فيها المؤتمرات ، كما كان الحال من قبل ..

..ولقد مر مندوب هذه الجريدة بعد ظهر اليوم بسراى الورود حيث يجتمع وزراء خارجية الدول الأربع الكبرى ، فلم ير سوى مندوبى ومصورى الصحف ، ذلك لأن الجمهور الذى كان يحتشد فيما مضى ليحيى مندوبى الدول بالهتاف أو بالتصفيق قد سئم هذه المؤتمرات التى لا جدوى منها ، ولم يعد يعلق عليها أى رجاء ..

ومضت « فرانس سوار » تقول : « ولكن مئات كثيرة من أفراد الجمهور احتشدت منذ الساعة السابعة مساء على امتداد شارع « كى ده لاتوريل » ليروا المدعوين لحفلة مطعم « لاتوردار جن » ..

« ولاتوردارجن » معناها برج الفضة .

ولا تواردار جن مطعم مشهور لا يقل شهرة عن مطعم مكسيم ، وأساس « شهرته البط » !

ورئيس طهاة المطعم المذكور يمكنه أن يقدم لك البط مطهواً على اثنى عشر شكلا مختلفاً !

بط مطهى بالكراز .. وبط مشوى .. وبط مضغوط ومصفى ! وبط محمر بالتفاح . . وبط بصلصة البرتقال . . وبط مطهى مع اللفت ؟ ... إلى آخره .. إلى آخره .

وتقول سجلات المطعم إنه افتتح أبوابه فى عام ١٥٢٠ .. أى قد مضى عليه أكثر من أربعة قرون .

ومن تقاليد المطعم أنهم يقدمون للزبون الذى يطلب طبق البط — وفى المطعم طبعاً مختلف ألوان الطعام الأخرى من طيور ولحوم وأسماك —

يقدمون له بطاقة مرسوماً عليها مطبخ المطعم ورئيس الطهاة ومكتوباً عليها رقم البطة التى قدموا منها للزبون الصدر أو الورك !

ذلك أن المطعم المذكور يُسجل يوماً بيوم — أو هكذا يزعم — عدد البط الذى يطهى ويقدم للزبائن ! ..

واحتفل المطعم فى الأسبوع الماضى — واحتفلت معه باريس — بوصوله إلى البطة رقم مائتى ألف ! ..

ولكنها بطة سعيدة الحظ !

لأن لجنة الاحتفال قررت أن لا تذبح ولا تطهى ! بل يطلق سراحها .. !

ومن نوافذ الطابق السادس — حيث يوجد المطعم المشهور وهو يطل من بعد على كنيسة نوتردام — أطلقت لجنة الاحتفال سراح البطة المائتى ألف ، بعد أن علقت بساقها ورقة كتبت عليها هذه الرسالة : « من يمسك بهذه البطة ، وفى أى بلد يكون ، فإن له الحق فى أن يتناول مجاناً فى مطعم لاتودارجن وجبة طعام مكونة من اثنى عشر صنفاً » .

ويقول مسيو تيراى صاحب المطعم إن البطة المذكورة لها جناحان قويان ، وهى قادرة على أن تعبر سماء بحر المانش إلى إنجلترا !

هذا وقد اتخذ البوليس الاحتياطات الكافية ليحول دون وقوف السادة عشاق الأكل وبأيديهم بنادق الصيد على أسطح الأبنية المجاورة ليصطادوا البطة لحظة إطلاق سراحها ويفوزوا بالاثنى عشر لوناً من أصناف الطعام !

وفى اللحظة التى حلقت فيها البطة السعيدة الحظ فوق مياه نهر السين متجهة إلى الشمال أرسلت لجنة الاحتفال هذه الإشارة التليفونية — باسم البطة ! — إلى جميع مكاتب وكالات الأنباء العالمية فى باريس وكذلك إلى راديو باريس ..

وهذا هو نص الرسالة والإشارة التليفونية :

يو ينيه ٧ — منتصف الليل —
إلى العالم — أخبار مهمة — أطلقوا سراحى الآن وأنا أطير عبر سماء باريس .

والإمضاء (البطة رقم ٢٠٠٠٠٠)

وقد ظلت باريس تتحدث أسبوعاً كاملا عن احتفال مكسيم ، وعن بطة مطعم لاتوردارجن وأكاد أسمع قراء يقولون .. هذا جنون !

نعم ! ولكننا فى باريس ! وقديماً قال الشاعر .. « ما لذة العيش إلا للمجانين ! »

* * *

ويزور باريس الآن ليوبولد الثالث ملك بلجيكا ، وهو يزورها متنكراً باسم مسيو ديترى ليشترك فى مباراة الجولف التى تجرى الآن فى ضاحية سان كلود .

ولم تحسن صحف فرنسا استقبال الملك ليوبولد ، ذلك لأن الفرنسيين لا ينسون له كيف تخلى عن « حلفائه » فى مايو سنة ١٩٤٠ ، وعقد صلحاً منفرداً مع هتلر ، واستسلم هو وجيشه للألمان !

وأذاع يومئذ بول رينو — رئيس وزارة فرنسا فى ذلك الوقت العصيب — خطبة رمى فيها ملك البلجيكيين بالخيانة وخيانة العهود والمواثيق !

* * *

وذهبت أمس إلى مطعم الكوبول فى مونمبارناس .

ألا ما أكبر الفرق بينه اليوم فى صيف ١٩٤٩ وبينه فى صيف ١٩٣٩ .

لم يبق أثر لذلك المرح وذلك « الجو الدولى » الذى كان يشيع فيه .. جو الصخب والضحك وغمز العين والحاجب بكافة اللغات !!

أين طلبة وطالبات دول البلطيق ودول البلقان ودول الشمال .. ؟
أين الفتيات النورويجيات والبولانديات والمجريات .. أين ؟
أين ؟

قيود السفر ، وقيود العملة ، والعملة الصعبة ، والعملة السهلة ، وحديث الحرب ، والضيق والفقر والقلق .. ثم الستار الحديدى ! كلها عوامل قتلت حرية التنقل والسفر ، وقضت أو كادت على الحى اللاتينى ومونمبارناس . فلم يعد الزائر يقابل فيهما سوى أبناء وبنات البلد من الفرنسيين .. أما الأجانب والأجنبيات الذين كان الحيان الشهيران يغصان بهم قبل الحرب فلم يبق لهم أثر !

مدريد . . نار الله الموقدة

نصح لى أصدقائى المصريون فى باريس ألا أزور إسبانيا فى شهر يولية ، لأن الحر فيها لا يطاق وخصوصاً فى مدريد .

قلت : وهل تكون شراً من القاهرة ؟!

قالوا : بكثير ! .. لأن القاهرة مهما اشتد حرها وقيظها بالنهار ، فإنها تعوضك خيراً فى المساء ، وليالى القاهرة يغازلها دائماً النسيم العليل .. أما مدريد !

وهأنذا أكمل عبارتهم بعد أن عرفت مدريد .. « أما مدريد فنار الله الموقدة ! نهارها وليلها سواء! بل لعل ليلها شر من نهارها بكثير ! »

ولكن كان لابد أن أزور إسبانيا وأطوف بمدنها الكبرى وخصوصاً « مدنها » العربية الأندلسية .. طليطلة — ويسمونها هنا « توليدو » وأشبيلية « سيفيل » وغرناطة وقرطبة أو « كوردوفا » .. وأن أرى بدائع الفن العربى — أو ما بقى منه ! أو بعبارة أدق « ما بقى القوم هنا منه ! » وعملية الهدم تجرى الآن فى آخر دار عربية كانت باقية فى مدريد .. وهم يهدمونها لكى يقيموا مكانها عمارة حديثة البناء !

كان لابد أن أزور إسبانيا بعد أن كنت هممت بزيارتها مرتين ، وعدلت عن زيارتها مرتين .

الأولى فى عام ١٩٣٧ ، وقد حال نشوب الحرب الأهلية دون زيارتى .

والثانية منذ عامين فى عام ١٩٤٧ ..

وهكذا غادرت باريس بقطار الصباح لكى أمضى فى القطار ستاً وعشرين ساعة قبل أن أصل إلى مدريد !

والطائرة تقطع المسافة فى أربع ساعات . ولكننى —والأعمار بيد الله— لم أكن فى يوم ما من أنصار السفر بالطائرة !

ومضى القطار — ويسمونه إكسبريس الجنوب — ماراً بأورليان وبلوا وبواتييه وأنجوليم .... وهى مدن وأسماء معالم شهيرة فى تاريخ فرنسا ..

وفى هذه الرقعة بين بواتييه وتور وأنجوليم لقيت جيوش العرب الغازية أول هزيمة حاسمة منذ انطلقت من صحراء العرب مكتسحة ما أمامها عبر فلسطين ومصر وشمال أفريقيا وبوغاز جبل طارق وإسبانيا وجبال البرنيز إلى ضفاف الجيروند وما يليها ..

هنا قابلهم شارل مارتل الفرنسى ، ودحرهم فى معركة من المعارك الحاسمة التى غيرت سير التاريخ ..

وارتد المد العربى إلى جزر ..

ولولا هذه المعركة الحاسمة لكانت جيوش العرب مضت فى سيرها وأخضعت فرنسا كلها ورفعت أعلام الهلال على القرية الصغيرة يومئذ التى أصبحت اليوم باريس !!

ومن يدرى فلربما كان العرب والأتراك التقوا بعد ذلك بنحو ستة قرون فى وسط أوربا ..

وأفقت من هذا الحلم عندما وصل القطار إلى مدينة بوردو . وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر .

وقام المسافر الجالس أمامى إلى « الترمومتر » المعلق عند مدخل عربة البولمان وعاد يقول : « ٣٦ » .

أى أن درجة الحرارة ٣٦ فى الظل ! فماذا تكون فى الشمس ، بل ماذا تكون فى مدريد ؟

ولكننى كنت انتقلت من حلم إلى حلم ...

وفى بلدة « هنداى » — وقد وصلنا إليها قبيل الساعة الثامنة مساء ، أتممنا إجراءات الجمرك وفحص جوازات السفر ....

ثم مضى بنا القطار — وقد خرجنا من الأرض الفرنسية — إلى بلدة « إيرون » وهى أول بلدة على الحدود الإسبانية ، وهنا غادرنا القطار الذى حملنا من باريس ..

وتغير الحال ! وجوه مختلفة ولغة مختلفة ، وعادات مختلفة . وفى « بوفيه » المحطة أمهات يحملن أطفالا ، ويسحبن بأيديهن أطفالا ، ويحيط بهن أطفال .. تماماً كأنك فى محطة طنطا أيام مولد السيد البدوى !

والذباب الذى كنا لانراه إلا نادراً فى فرنسا .. أقبل علينا يحط ويحيي تحية المشتاق ! ولعله شم فىّ رائحة الشرق الذى أنجبه ورباه ثم أطلقه لعنة على العالمين !

وبين صراخ النسوة وعويل الأطفال وطنين الذباب أحسست أننى لست « غريباً » وأننى قد استبدلت أهلا بأهل ! وأننى هنا فى وسط « بلديات » وأن هذا الذباب هو الشاهد الحى القائم على أن للشرق والسلف الصالح فى إسبانيا آثاراً لن يقوى على محوها الزمن !

والإهمال ... وعدم الاهتمام ... وشباك التذاكر الذى كان يجب أن يفتح قبيل وصول القطار يفتح بعد ، لأن الموظف المختص لم يحضر بعد !

ووقفنا طابوراً طويلا أمام شباك التذاكر ... ولما طال بنا الوقوف ، وقرع زجاج شباك التذاكر على غير طائل ، مضينا — ونحن أبناء

أم مختلفة ـ تستنزل اللعنات على أم رأس أو رأس أم الموظف المذكور باللغات الحية والميتة !

وأخيراً حضر الموظف ، ولما يبق على موعد قيام قطار مدريد سوى بضع دقائق ! .. وبدلا من أن يبدأ عمله فوراً مضى أولا إلى زميل له يقترض منه سيجارة ... ثم يشعلها على مهل وينفخ دخانها مرتين وثلاث مرات ...

وأخيراً ... تحرك بنا قطار مدريد فى تمام الساعة العاشرة مساء ، وقد غربت الشمس منذ دقائق فقط تاركة وراءها عند الأفق لجة من الدم تطفو فوقها عروض من الذهب المذاب .

وفتحت نافذة ديوان النوم ، ولكن أين هو الهواء !

وعجبت كيف كان العرب يصومون شهر رمضان فى إسبانيا إذا حل الشهر المبارك فى الصيف ؟

إن الشمس لا تغرب هنا فى شهر يولية إلا بعد منتصف الساعة العاشرة مساء ، فكيف يكون الصيام ! .. ومتى يكون الإفطار ؟ ومتى يكون تناول طعام السحور ؟ !

وقلت وأنا أتقلب فى فراشى ، والقطار يهدر فى طريقه ، ويتسلق رويداً رويداً جبال البرينيز ، وقد بدأت أحس لذة نسيم الليل — بعد أن ارتفعنا عن سطح البحر نحو ألف متر أو تزيد — قلت .. « لعل العرب زهدوا فى إسبانيا وتركوا الأندلس هرباً من صيام شهر رمضان فى هذا البلد الذى لا تغرب شمسه إلا بعد ١٨ ساعة من الشروق » !

وأقبلنا على مدريد فى منتصف الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالى ....

ومدريد عاصمة إسبانيا أشبه بالمرأة التى لا هى جميلة ولا هى

دميمة ! لا خفيفة الدم ... ولا ثقيلة الدم ! مدينة عادية تماماً لا طابع لها ولا لون .

لباريس مثلا طابع خاص ، ولروما طابع خاص ، وللندن طابع خاص.. ولكل عاصمة تقريباً من عواصم أوربا من أنقرة وإستانبول إلى فيينا وبودابست طابع خاص ... إلا مدريد !

في بعض أحيائها القديمة يخيل إليك أنك في روما ! .. وفي بعض شوارعها التجارية يخيل إليك أنك في باريس !

وإذا جست خلال حواريها – وما أقذرها – ظننت أنك في حي « الإيست إند » في لندن !

ولكن لمدريد ميزة واحدة في هذه الأيام ، وهي أنها قطعاً ، وبكل تأكيد ، أرخص عاصمة في أوربا ، ونفقات المعيشة فيها أقل من نصف مثلها في باريس ، بل أقل من مثلها في القاهرة بكثير .. (كان هذا في عام ١٩٤٩) .

والغرفة بحمام التي تدفع أجراً لها في باريس نحو ثلاثة جنيهات في اليوم ، لا تكلفك هنا أكثر من ١٢٠ قرشاً ! ووجبة الطعام في مطاعم الدرجة الأولى في مدريد لا تكلفك أكثر من ٦٠ قرشاً ... في حين أنها تكلف في باريس نحو جنيهين !

وقال لي طالب مصري من أعضاء بعثة الفنون الجميلة هنا إن في مدريد فنادق طيبة يستطيع السائح أن يجد فيها طعاماً وشراباً وفراشاً بنحو ٧٠ قرشاً في اليوم الواحد .

والسلع – وخصوصاً المصنوعات الجلدية – أرخص من التراب . والحذاء الجيد المتقن الصنع يعرض في واجهات المحال التجارية بسعر يروح بين ٦٠ و ١٢٠ بيزيتا ! والبيزيتا تساوي قرشاً واحداً ! .. أي أن أسعار الأحذية في مدريد مثل أسعارها أول أقل في دمياط !

والذى أعجبنى هنا بوجه خاص هو قناعة الإسبانيين ورضاؤهم بالقليل ... من العطاء أو « البقشيش » .

تناولت الطعام فى أول يوم فى مطعم الفندق الذى نزلت فيه ... ودفعت الحساب ! وناولت « الجرسون » على سبيل العطاء ورقتين ماليتين حسبت أن كلا منهما من فئة خمس بيزيتات . أى أن جملتهما عشرة قروش ....

وانحنى الجرسون مثل رقم ٨ يشكرنى شكراً جزيلا !

ولكننى اكتشفت بعدها أننى لم أعطه سوى قرشين اثنين ! وأن الورقتين كانتا من فئة بيزيتا واحدة ! وحفظت الدرس !

أما فى باريس فقد تمنح « الجرسون » مائة وخمسين فرنكاً ، أى نحو ١٥ قرشاً ، فيضعها فى جيبه ! .. وقد ينسى أن يشكرك ! وإن شكرك فبكلمة واحدة تخرج وهى تعرج من بين شفتيه !

والمتسولون هنا كثيرون ، ولكنهم أقل « فناً » بكثير من زملائهم فى إيطاليا . وهم يستحلفونك بالقديسين والقديسات .. ولكن ذخيرتهم من أسماء أولياء الله أقل بكثير من ذخيرة إخوانهم الإيطاليين .

أما فى الإلحاح فإن الفريقين سواء .

ولكن شحاذى مدريد يقنعون بما قيمته مليم ! ويدعون الله أن يدخلك جناته ، آمين !

أما إذا جسرت أن تجود على شحاذ فى باريس بأقل من عشرة فرنكات (أى قرش صاغ) فإنه يدعو لك بالجحيم ومع سرعة التنفيذ !

* * *

والقوم هنا راضون بحالهم وقانعون .. والحياة كما قلت سهلة رخيصة ، وأعمال التعمير والبناء والتجديد وإصلاح ما خربته الحرب الأهلية قائمة فى كل مكان . وهم يشيدون الآن على حدود المدينة الشمالية بناء ضخماً على مساحة

نحو عشرة فدادين لكى يجمعوا فيه كافة وزارات الحكومة . . . إلا وزارة الطيران – ولا أفهم السبب – فإنهم يشيدون لها بناء خاصاً بالقرب من المدينة الجامعية . . .

وفى مدريد عمارة كبيرة شيدتها الحكومة لرجال الفنون على اختلاف ألوانها ، فهى تضم بين طبقاتها السبع أندية للموسيقيين والمطربين والراقصين والرسامين ، ولرجال الآداب والقلم .. إلخ .. لكل طائفة ناد خاص ، أو طابق خاص !

وبعد .. فإن كان حكم فرانكو هو الفاشية كما يقال .. وكان رخص المعيشة ورضاء المحكومين وقناعتهم من ثمرات هذا الحكم الفاشيستى فمرحباً بالفاشية وفى أية صورة تكون !

* * *

والأمر الوحيد الذى ينغص الحياة على أهل مدريد فى هذه الأيام هو قلة الماء ! ماء الشرب وماء الاستحمام ! والسبب فى ذلك أن مدريد تعتمد فى حاجتها من المياه على الأمطار والثلوج . ومياه الأمطار تجمع فى خزانات .. ولكن السماء شحت بأمطارها فى الموسم الماضى ، ولم يسقط من الثلوج إلا أقل القليل .

واضطرت الحكومة أن تخضع توزيع الماء لما يشبه نظام البطاقات ! ومن هذا فإن المياه لا تجرى فى « المواسير » إلا لمدة نصف ساعة فقط فى الصباح .. وعلى السكان أن يخزنوا حاجتهم فى الأوانى والمواعين لطول النهار !

ولما كانت الكهرباء تعتمد فى توليدها على مساعدة المياه ، فإن النور الكهربائى قد أخضع كذلك للقيود نفسها .. ومن هنا يقطع التيار خلال ساعات معينة فى كل يوم !

ولكن الحكومة استثنت الفنادق الكبرى من حكم هذه القيود

رحمة أو حرصاً على راحة ومرضاة السائحين . فالماء يجرى طول اليوم فى الفنادق ، وكذلك التيار الكهربائى ..

ولقد دهشت فى أول الأمر — وقبل أن أعرف السبب — دهشت لكثرة الذين توددوا إلى من أبناء مدريد فى ردهة الفندق . وحرصوا على التعرف إلىّ ..

والسبب بسيط ! .. لكى أسمح لهم بالتمتع « بدش بارد » فى الحمام الخاص الملحق بغرفتى فى الفندق !

* * *

ومدريد — مثل القاهرة وباريس — مملوءة بالمقاهى العمومية . والقوم هنا يمضون شطراً كبيراً من الليل فى هذه المقاهى . وقد تسمعهم يتبرمون ويسخطون بسبب أزمة الماء .. ويسبون ويلعنون — واللغة الإسبانية من أغنى لغات الأرض فى ألفاظ السباب — وهم يسبون كل شىء .. تماماً كما هو الحال فى مصر !! ولكن لا شىء هناك فى الحقيقة وراء هذا السباب ! إن هو الآ ضيق الصدور .. وشدة الحر .. وبخار فى الهواء !

* * *

وأفقت صباح اليوم — وأنا ما أزال بين النعاس واليقظة — على أصوات خيل إلى معها أننى فى القاهرة لا فى مدريد !

أصوات الباعة التى تصاعدت إلىّ من ميدان « الكورتز » مجلس النواب — الذى تطل عليه شرفة غرفتى هى أصوات باعة القاهرة نفسها ..

نفس الأصوات ونفس النغمات ونفس المد والتمديد والترنيم .. التى نسمعها فى مصر تنادى على الخيار القشة اللى زى اللوبيا .. وبيض اليمام يا عنب !

والخمسة القرون التى انقضت منذ تقلص حكم العرب عن هذه البلاد لم تمح عنها الطابع العربى .. والسبعة القرون التى ساد فيها حكم



مصارعة الثيران فى أسبانيا

العرب شبه جزيرة أيبريا قد خلفت وراءها طابعاً وطباعاً لن تقوى على محوها القرون !

الغناء ، الرقص ، الموسيقى ، هندسة البناء ، الزخرف ، العادات بل اللغة ... كلها تحمل الطابع العربي الأصيل !

وهذه السمراء الفاتنة ، ذات العيون اللامعة الخاطفة .. ما أحراها أن تكون من فتيات حي المنيرة أو حي رأس التين !

حتى الغزل و« البصبصة » وأساليب التقرب إلى حبيبة القلب ... وطريقة إبداء الإعجاب عن طريق السب وحرق دين الملة كما يفعل إخواننا فى لبنان هى نفسها فى مدريد !

وإذا كانت « البصبصة » فى ميدان العتبة الخضراء وشارع فؤاد تسمح بأن تقول : « يا محمل ، ياالحم غالى ومتكلف ! ... أو يلعن دين خفة دمك ! ..» وفى لبنان يقولون : « يقصف لى عمرك ! ما أخف دماتك ! » فهنا إذا أراد الفتى إبداء إعجابه بالغزال المار فى الطريق يقول : « كومينا » وإذا رأت الفتاة أن تبادله إعجاباً بإعجاب ، وأن ترد عليه تحيته بمثلها .. ابتسمت له وهمست : « كومينو » !

وكومينا ... معناها قردة ! وكومينو ... قرد ! ..

نحن نقول فى القاهرة يا قطة ! وهم فى مدريد يقولون يا قردة !

* * *

مصارعة الثيران :

مصارعة الثيران فى إسبانيا هى أشبه بالأهرام وأبى الهول ومقبرة توت عنخ آمون ودور الآثار فى مصر ، أى أنها الشيء الذى يجذب السائحين . وأول ما يحرص السائح على مشاهدته فى إسبانيا .

وتحرص مصلحة السياحة فى مدريد على الإعلان بكافة وسائل الدعاية عن حفلات مصارعة الثيران وأسماء أبطال المصارعين ، وهى تنشر صورهم فى صحف أمريكا وأوربا ، وتحيطهم بهالة من الإعجاب ! .. وتوحى بنشر مختلف القصص والنوادر عنهم تماماً كما تفعل إدارات الدعاية فى شركات هوليوود عن كبار كواكب السينما بل لعل مصلحة السياحة فى إسبانيا لا تعنى بالدعاية لمتاحف الفن الكثيرة وحفلات الرقص الإسبانى أو المواكب والمواسم الدينية فى أشبيلية أو مراقص الباسك وحفلاتهم كما تعنى بالدعاية لحفلات مصارعة الثيران !

وقد يدخل وزير إسبانى إلى مطعم عام فلا يلتفت إليه أحد !

ولكن إذا دخل أحد مشاهير مصارعى الثيران — ويسمونه «طوريرو» لا « طوريادور » كما يكتبها خطأ معظم الكتاب — إذا دخل مطعماً ما أو حفلة ما تلفتت إليه الأنظار وأسرعت إليه حسان الحفلة ليحظين منه بكلمة أو ابتسامة !

هم إذن هؤلاء « الطوريروس » جمع طوريرو — أشبه بكبار كواكب السينما ، بل هم أعظم مقاماً فى إسبانيا إذا قيس المقام بوفرة الأرباح .. وقد يدهش القارئ إذا عرف أن الطوريرو العادى ، أى الذى لم يبلغ بعد مرتبة الأبطال ، لا يقل دخله فى العام الواحد عن خمسة ملايين بيزيتا أى خمسين ألف جنيه !

* * *

مواسم المصارعة :

ولمصارعة الثيران فى إسبانيا مواسم مختلفة فى المدن المختلفة .. تماماً مثل مواسم الأوبرا أو التمثيل ! فكما أن الفرقة القومية مثلا فى مصر تمثل شتاء

فى القاهرة وصيفاً فى الإسكندرية . فإن حفلات مصارعة الثيران تقام فى مدريد مثلا بين مايو وسبتمبر ، وفى أشبيلية بين أواخر أبريل وأوائل مايو ، وفى غرناطة فى شهر يونية ، وفى بامبلونا فى يولية .. وأما فى سان سباستيان — المصيف الرسمى للحكومة الإسبانية — فإنها تقام ابتداء من منتصف شهر أغسطس .

وأشهر مصارعى الثيران الآن هم لويس ميخل دومنجوين وباكيتو يونيوز وباريتا وروفيرا . وهذا الأخير يبلغ دخله فى العام نحو مائتى ألف جنيه . وهو يعمل تسعة أشهر فقط ، ويستريح بقية العام .

ولا يحسبن أحد أنه يعمل كل يوم طيلة هذه الأشهر التسعة ، ذلك لأن حفلات مصارعة الثيران تقام ثلاث مرات فقط فى الأسبوع . أى أنه يربح المائتى ألف جنيه عن عمله فى ١١٢ حفلة . ولا تزيد الحفلة على ساعتين اثنتين !

وإذا مشيت فى الحساب إلى النهاية وجدت أنه يربح نحو ألف جنيه فى الساعة الواحدة !

ولكن مصارع الثيران يدخل حلبة المصارعة وهو يحمل حياته على كفه! .. خطر الموت — وأى موت — ماثل فى كل لحظة !

عثرة قدم .. أو أقل هفوة فى نقل القدم .. أو تقديم ساق قبل أخرى أوفى لفتة الرأس .. أو فى قياس المسافة بين الثور الهائج وبينه .. أقل هفوة .. وإذا بالثور الهائج فوقه ينطحه بقرنيه ... ويبقر بطنه ! .. أو ينفذ بقرنيه من الظهر إلى الصدر .. أو يغرز أحدهما فى عنق الطوريرو !

ومن هنا كان أول درس يتلقاه مصارع الثور هو « أن أول غلطة لك هى آخر غلطة لك لأنك لن تعيش بعدها لكى ترتكب غلطة أخرى » !

أشهر مصارع :

ولا يزال القوم هنا يتحدثون عن مانوليتى أشهر مصارع ثيران عرفته إسبانيا فى العشرين عاماً الأخيرة ، وكيف لقى مصرعه فى لحظة النصر !

كان مانوليتى يربح فى العام الواحد أربعين مليون بيزيتا ، أى أربعمائة ألف جنيه بسعر القطع الحالى .. ونحو سبعمائة الف جنيه بسعر القطع فى العام الماضى يوم لقى مصرعه تحت قدمى ثور !

وكان مانوليتى لايزال فى الثانية والثلاثين من عمره .. يوم مات !

نزل مانوليتى إلى حلبة المصارعة — وهى مستديرة ، ومساحتها نحو فدان— نزل وهتاف عشرات آلاف المعجبين يشق الفضاء .

وتغلب على الثور الأول ...

ثم الثور الثانى ...

فلما كان الثور الثالث ... وقد وصل مانوليتى إلى المرحلة الأخيرة ورفع سيفه القصير المستقيم لكى يغرزه بضربة واحدة فى عنق الثور .. ترددت يده .. ربما جزءاً من ثانية !

ولعله التعب ! أو لعلها الشمس المتوهجة .. أو لعله صياح حناجر خمسين ألف متفرج وهتاف إعجابهم الذى يصم .. ولكن يد مانوليتى ترددت جزءاً من ثانية .. وهذا التردد الذى لم يدم أكثر من لمح البصر كان كافياً ! فبينما كانت يده تهوى بالسيف تغرزه فى عنق الثور .. كان الثور يغرز قرنيه فى جنبه !

وسقط الاثنان معاً ! .. سقط الثور ومصارعه !

وحملوا مانوليتى إلى المستشفى ..

وفتح عينيه فى حشرجة الموت وسألهم ...

لم يسألهم عن زوجته ولا عن طفليه .. ولا عن أمه وأبيه . بل سألهم : ولكن .. هل مات الثور؟

قالوا : نعم .. مات !

وارتسمت ابتسامة الرضا فوق شفتى الطوريرو البطل ، ولفظ نفسه الأخير !

وبكته إسبانيا من أقصاها إلى أقصاها .. ولا تزال صورته الفوتغرافية تباع حتى اليوم وتعلق فى صدر المطاعم والمقاهى والأندية !

والواقع أنه يندر أن يموت أحد من مصارعى الثيران حتف أنفه . فمعظمهم يلقى منيته مبقور البطن أو مهشم الأضلاع ! والسعيد الحظ بينهم من يترك العمل بعد أن يجمع ثروة طائلة ويفقد ذراعاً أو ساقاً !

تكافؤ الفرص :

ومع جسامة الخطر الذى يواجه مصارع الثور أعتقد أن مصارعة الثيران هى نزال أو صراع ليس فيه مروءة ولا شهامة — إن جاز هذا التعبير — إذ ليس فيه تكافؤ للفرص .

الخطر على الطوريرو جسيم ، نعم . ولكنه قد ينجو ..
أما الثور فإنه يدخل الحلبة وهو مقضى عليه بالموت !
ليس هناك إذن تكافؤ فى الفرصة أمام « الطرفين » ..
باب النجاة مفتوح دائماً أمام المصارع ..
أما الثور فليس أمامه سوى باب الموت .

وقد يتغلب الثور على مصارعيه من الطوريرو إلى الميتادور والبيكادور .. وقد يقضى عليهم واحداً بعد الآخر .. ولكنه مع ذلك لن ينجو . لأن

آخرين يحلون فى الحال مكانهم .. ولا يزالون بالثور حتى يقضوا عليه !

وهو بعد هذا وذاك مشهد فظيع يحبس الأنفاس ويحطم الأعصاب ! ولقد عجزت أنا عن مشاهدة الحفلة حتى النهاية .. وانصرفت بعد نصف ساعة فقط بعد أن سجلت فيلماً سينمائياً ، وغادرت الحفلة والثور الثالث مثخن بالجراح والدماء تسيل من ظهره وعنقه على جلده الأسود اللامع .. وفى ظهره ست حراب مغروزة .. والطوريرو — وكان روفيرا — يحاوره قبل أن يقضى عليه نهائياً ويغرز فى عنقه سيفه المدبب القصير !

رياضة عربية :

كان المعتقد إلى أوائل القرن الماضى أن مصارعة الثيران « رياضة » إسبانية الأصل ، إلى أن تبين أنها عربية الأصل ! .. وأن العرب هم الذين بدءوها ولقنوها للإسبانيين ..

وفى متحف البرادو فى مدريد قاعة بالدور الثانى خصصت لبعض الرسوم والصور التى رسمها الرسام الأشهر جويا فى « العهد الأسود » وبعضهم يسمونه « الفن الأسود » . ويعد جويا من أشهر وأكبر رسامى العالم ، وبعضهم يغالى ويضعه فى مرتبة واحدة مع ميكائيل أنجلو ورفائيل وتيسيان ..

وعلى كل حال فإن جويا يعد بين طليعة الرسامين الإسبان .. وقد اشتهر ونبه ذكره فى أواخر القرن الثامن عشر ، وتوفى فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر .

وجاء يوم سئم فيه جويا رسم صور الملوك والأمراء والعظماء .. وزهد فى حياة النعيم ، فانصرف عن جو المدنية والترف إلى الشعب ، وراح يرسم صوراً مستمدة من حياة الشعب .

ولكنها كانت صوراً أوحى بها خيال مريض ! .. بل إن بعضهم يقول إن جويا كان أصيب بلوثة أو بما يشبه الجنون ! .. كما أن هذه الصور جميعها رسمت بالقلم أو بالفحم ! لا بالزيت والألوان .

ومن هنا كانت التسمية « العهد الأسود » إشارة إلى جنون جويا أو « الفن الأسود » إشارة إلى قلم الفحم الذى رسمت به الصور ..

وبين هذه الصور رسم لا يزيد طوله على ٣٠ سنتيمتراً وارتفاعه على ٢٠ سنتيمتراً وهو يمثل حلبة مصارعه الثيران ... وقد وقف فيها المصارعان – الطوريرو والميتادور– وكلاهما عربى ، وكلاهما كان يرتدى القفطان العربى وعلى رأسه العمامة الكبيرة !

وإنى لأعجب – ومن مقتضيات فن مصارعة الثيران الخفة المتناهية التى ما بعدها خفة ، والرشاقة فى الحركة ، والثوب الملتصق بالجسد والساقين حتى لا تعوق ذيوله وحواشية حركة المصارع – إنى لأعجب كيف كان الطوريرو العربى بعمامته وقفطانه ذى الذيول يستطيع محاورة الثور ومصاولته ومداورته !

حفلات المصارعة :

وذهبت إلى إحدى حفلات مصارعة الثيران وأنا أعلم أننى سأشهد شيئاً تتقزز منه النفوس .. أو نفسى أنا على الأقل ، ولكننى كنت أريد أن أسجل فيلماً سينمائياً لمصارعة الثيران وأضمه إلى مجموعتى من الأفلام !

وكان الحر شديداً – بل حر القاهرة فى يولية وأغسطس هو النسيم العليل بالنسبة لحرّ مدريد – ومع ذلك وبالرغم من شدة الحر امتلأت مدرجات مبنى المصارعة ، ويسمونه (سراى الثيران Plaxa de Toros) إلى آخرها ، ولا يقل عدد المتفرجين عن خمسين ألفاً ! .. وأجرة الدخول تتفاوت بين عشر بيزات ومائتى بيزيتا بخلاف الضريبة وهى ١٠٪ .

والبيزيتا تساوى الآن قرشاً صاغاً . أى أن إيراد الشباك من الحفلة الواحدة يبلغ أكثر من ستين الف جنيه !

وليس هناك سقف للمبنى ، أى أن المدرجات والحلبة مكشوفة تماماً ، ومن هنا تختلف أسعار الأماكن حسب وقوعها فى الظل أو فى الشمس .. وقربها أو بعدها عن الحلبة .

وبدأت الحفلة فى الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والأربعين بنفخ الأبواق .. نفخاً .. ذا نغم خاص مثير !

الموكب :

ودخل من باب واسع فى صدر الحلبة موكب الطوريرو . يتقدمه الطوريرو نفسه ، ومن خلفه المتادورس وعددهم ستة ، ومن خلف هؤلاء البيكادوس على ظهور الجياد وعددهم أربعة ..

وفى مؤخرة الموكب البغال والقائمون عليها ومهمتهم جر الثور الصريع من قدميه إلى خارج الحلبة .

وطاف الموكب بدائرة الحلبة ، والجمهور — أى عشرات الألوف تصفق وتهتف لروفيرا وتقذفه بالزهور ..

ثم انسحب الجميع وعادوا من حيث دخلوا .

وبقى فى الحلبة الطوريرو والمتادورس ، وقد توزع هؤلاء فى جوانب الحلبة ...

ونفخت الأبواق مرة ثانية ..

وفجأة . . فتح باب فى جانب من الحلبة .. وانفلت منه ثور !

وجال الثور بنظره فى جوانب الحلبة ، ثم وقف كالمأخوذ !! .. ولعله من وهج الشمس ، أو من هذه الجموع المحتشدة ، أو من صياح الآلاف .

وظل الثور لحظات واقفاً يجيل نظره .. إلى أن تقدم منه المتادور — أحد المتادروس الستة — ولوح أمامه بمحرمته الحمراء — والمحرمة هنا ترجمة للكلمة الإسبانية (Cape) — واللون الأحمر كما هو معروف يهيج الثور ويستفزه ، ولهذا السبب تجد جميع جدران حلبة المصارعة قد طليت باللون الأحمر ..

وما إن تقدم المتادور ولوح بالمحرمة الحمراء ، حتى ثار الثور وزمجر ثم اندفع نحو المتادور ، ورأسه منحن إلى أسفل يريد أن ينطح المتادور .. ولكن الرجل بقى فى مكانه لا يتحرك حتى أصبح الثور على قيد خطوتين منه أو أقل ثم .. وهنا فن المصارعة ورشاقة المصارع ..

نقل الميتادور قدماً وراء قدم واستدار نصف خطوة واحدة .. فإذا به قد تنحى عن طريق الثور الهائج .. وإذا بالثور ينطح بقرنيه الهواء !

واندفع الثور فى طريقه ثم عاد ..

واندفع إليه متادور آخر .. ثم ثالث ورابع ... وكل منهم يلوح بالمحرمة الحمراء أمام عينى الثور ... وكل منهم يستفز الثور ثم يفلت منه برشاقة ..

ودامت هذه العملية نحو خمس دقائق ، وكان هياج الثور قد بلغ غايته !

البيكادور :

وهنا نفخت الأبواق مرة أخرى ودخل البيكادروس على ظهور الجياد .. وقد أمسك كل منهم فى إحدى يديه برمح طويل ! وفى اليد الأخرى أمسك بعنان الجواد ..

أما الجياد فقد عصبت عيونها حتى لا ترى الثور . وأسدلت على جانبيها عروض من الجلد السميك تحميها من قرون الثور حين يلتحم معها ... ولكن يحدث أحياناً أن تكون نطحة الثور من العنف والقوة بحيث تقلب الجواد وفارسه أرضاً . كما حدث مرتين فى هذه الحفلة !

وتقدم متادور بمحرمته يحاور الثور حتى استدرجه نحو البيكادور ، ورفع البيكادور رمحه وغرز سنه فى ظهر الثور ، ثم سحب الرمح وهو يقطر دماً !

وإذا الثور يهجم على البيكادور . وتدافع نحوه المتادورس بمحارمهم الحمراء يستدرجونه نحوهم بعيداً عن البيكادور ..

وتكررت هذه العملية مرة أخرى ..

ثم نفخت الأبواق ..

وكان الثور هنا فى أشد حالات الهياج ... وقد بدأ يهن قليلا ... وتقل سرعته فى الجرى .

ودخل الحلبة متادور ، وقد تخلى عن محرمته . وأمسك بكلتا يديه حربتين قصيرتين لا يزيد طول كل منهما على ٧٠ سنتيمتراً .. وحاور الثور وداوره ، ثم بحركة رشيقة وثب فى الهواء ، وبنفس الحركة غرز الحربتين فى لحظة واحدة فى عنق الثور وتركهما مغروزتين !

وهو عمل شديد الخطورة يتطلب خفة قدم وثبات نظر ويداً قوية كالحديد !

ودار الثور حول نفسه وهو يخور ويزأر .. ألماً ! ويحاول أن ينفض عن عنقه هاتين الحربتين المغروزتين ! .. هذا والدم يسيل على جوانبه بغزارة ..

ودخل متادور ثان .. وغرز حربتين أخريين ...

ثم ثالث .. حتى بلغ عدد الحراب المغروزة ستاً !
ونفخ فى الأبواق ...

المرحلة الشاقة :

وتقدم الطوريرو من الثور .. وهذه المرحلة هى أشق وأخطر مرحلة فى مصارعة الثور ..

تقدم وقد أرخى المحرمة الحمراء على طول ذراعه اليسرى .. يستفز بها الثور ويحاوره فى حين أمسك بيده اليمنى سيفه المستقيم القصير !

وخلا الميدان إلا من الطوررو والثور .

والطوريرو البطل حقًّا معبود الجماهير حقًّا والذى يستحق الإعجاب حقًّا .. هو الذى يطيل فى محاورة الثور — أو فى عذاب الثور وهو ثابت فى مكانه .. تستطيع أن ترسم حوله دائرة محورها متر واحد لا يتعداها! يقلب محرمته أمام الثور فيندفع الثور .. ولكنه ينقل قدماً وراء قدم ويدور حول نفسه ... فإذا به وراء الثور ... أو إلى جانب الثور ... ولكنه ليس أمام قرنى الثور ..

هذا والدماء تسيل من جروح الثور الكثيرة ..
ويسقط الثور ضعفاً ... ثم ينهض وهو أشد هياجاً من قبل !
إنها الحياة ! .. والثور يحس بغريزته أنه صراع حتى الموت !

ويقف الثور .. ويحدق لحظة فى الطوريرو .. كأنما يريد أن يغازله وينطح !

ولكن الطوريرو ... أخف قدماً منه ..

وتدوم هذه العملية نحو خمس دقائق .. وصياح عشرات الألوف

يصم الآذان ! وهتافهم .. وضجيجهم كلما أتى الطوريرو بحركة بديعة أعجبتهم !

ثم ينفخ فى الأبواق ..

الإجهاز على الثور :

ويتقدم الطوريرو ليجهز على الثور ...

وكأنما الثور يحس بأن هذه هى الخطوة الأخيرة ..

وتنعكس الآية — وما أعجب غريزة الحياة ! — فإذا بالثور حريص على ألا يقترب من الطوريرو .. بل يقف موقف الدفاع وقد حنى رأسه . وقرناه إلى عل .. مستعداً لنطح من يقترب منه !

وعلى الطوريرو .. أن يتقدم وأن يهاجم ...

ودورة أو دورتان سريعتان حول الثور ... ثم هجوم سريع .. ثم تراجع أسرع .. ثم مفاجأة تذهل الثور !

.... وإذا بالسيف قد غاص فى عنقه حتى المقبض !

ويدور الثور المسكين حول نفسه ... أو قد يتقدم نحو الطوريرو يريد الانتقام .. ولكنه يكون قد أصبح أضعف من أن يستطيع حراكاً !

وأخيراً يسقط الثور ... ويتمدد .. ولكنه لا يزال رافعاً رأسه وكأنما يودع نور الشمس ! هذا والأبواق ينفخ فيها ... والجماهير تصفق ....

وتدخل البغال .. ويتقدم أحد الرجال ويضرب مؤخرة عنق الثور بقبضة يده ... فيرتخى رأس الثور ، وتربط قدماه بحبل ، وتشده البغال إلى خارج الحلبة ..

ثم يدور الطوريرو فى شبه عدو حول جوانب الحلبة ليتلقى تحيات الآلاف شاكراً برفع يديه ، وتقذفه الجماهير بالزهور ، وأحياناً بهدايا

الحلوى والسجاير التى يلتقطها أحد الخدم وهو يدور وراءه .

وكثيراً ما تكون بين هذه الزهور والهدايا « رسالة غرام » قد لفت حول ساق وردة ! .. وفى الرسالة اسم الحسناء المعجبة .. وعنوانها أو رقم تليفونها ... أو موعد للمقابلة !

وبعد فترة استراحة قصيرة ينفخ فى الأبواق .. ويدخل ثور ثان .. وهكذا .

وعدد الثيران التى يصارعها الطور يرو فى كل حفلة ستة ..

ولكننى انصرفت بعد الثور الثانى ، وقبيل الإجهاز على الثور الثالث . . لأن أعصابى لم تعد تحتمل مشهد الصراع بين الحياة والموت . .

وغادرت الحفلة فى الساعة السابعة والربع . . مع أنها تدوم إلى الساعة التاسعة مساء . .

والشمس — كما قلت سابقاً — لا تغرب فى إسبانيا فى شهر يولية قبل الساعة العاشرة !

* * *

ليس فى إسبانيا مسجد واحد :

حكم العرب إسبانيا أكثر من سبعة قرون ، وخفقت راية الهلال فى سماء شبه جزيرة أيبريا إلى أواخر القرن الخامس عشر ، ومع ذلك لم يبق فى إسبانيا كلها إسبانى مسلم واحد ... ولم يبق فى إسبانيا كلها مسجد واحد إلا مسجد قرطبة الذى أحاله الإسبان إلى كاتدرائية ... ولكن « قبلة » الإمام لاتزال فى مكانها ! ولا يزال المنبر قائماً فى صدر المسجد حتى اليوم !

وقلت لزميل صحفى إسبانى يعمل بجريدة « أب ج » : أليس عجيباً أن

مدريد ليس فيها مسجد واحد يؤدى فيه المسلمون فروض دينهم ، مع أن فى لندن وباريس وسواهما من عواصم أوربا مساجد للمسلمين ؟ .. ولإسبانيا مثل بريطانيا وفرنسا وإيطاليا رعايا من المسلمين ؟

قال الصحفى الإسبانى — ولو أنه ليس متأكداً من صحة ما يقول — قال : لعل السبب أن القانون فى إسبانيا لا يسمح بممارسة شعائر أية ديانة إلا الديانة الكاثوليكية !

وأنا لا أصدق هذا . وإلا كان محرماً على البروتستانت والأرثوذكس وغيرهم ممارسة شعائر دينهم فى إسبانيا !

وفى إسبانيا جالية عربية — معظمها من المراكشيين — وعلى رأسها التاجر المشهور السيد مبارك صاحب محل « البرايو » — أى الفردوس — وهو رجل كون ثروته الأولى فى تشيكوسلوفاكيا ، ثم استوطن مدريد ، وأصبح اليوم من أصحاب الملايين ..

وأعتقد أن فى إمكان هذه الجالية العربية أن تشيد مسجداً فى .. مدريد إلا إذا كان صحيحاً ما قاله الصحفى الإسبانى من أن القوانين القائمة تحرم ذلك !

* * *

نافورة الدموع والأنين فى قصر الحمراء :

وفى قصر الحمراء المشهور فى غرناطة نافورة يحرص الزائرون على مشاهدتها والوقوف طويلا أمامها يصغون لرواية الدليل ..

يقول الدليل ، أو تقول الأساطير : إن أحد خلفاء الأندلس شك فى أن لزوجته — أو بعبارة أصدق إحدى زوجاته — علاقة مريبة بأحد الأمراء ..

ودعا الخليفة المذكور الأمير . ودعا معه نساءه . وأهله وبناته وأولاده وخدمه وكل فرد من أفراد حاشيته . وكان عددهم ستة وثلاثين !! دعاهم جميعاً إلى وليمة فخمة أقيمت لهم حول النافورة .

ولما انتهى الأمير وأهله وأفراد حاشيته من تناول الطعام . انقض عليهم حرس الخليفة وأمسكوا بهم وذبحوهم واحداً بعد واحد فى النافورة ذبح الشياه !

وامتلأت النافورة بدمائهم حتى فاضت !

ثم يقول الدليل : سيداتى وسادتى ! وإذا جئتم هنا ليلا . ووقفتم أمام هذه النافورة سمعتم بوضوح صوت بكاء وحشرجة تنبعث من النافورة ، وهو صوت الضحايا الذين أمر بذبحهم الخليفة المخدوع !

ويظهر أن العرب عندما نزلوا فى إسبانيا توزعوا فى أنحائها طوائف طوائف .. فالذين كانوا من أصل سورى مثلا استوطنوا غرناطة ..

أما لبنانيو الأصل منهم فقد نزلوا فى أشبيلية ..

والفلسطينيون والعراقيون اختاروا قرطبة ..

وإنك لتمضى أسبوعاً طويلا فى غرناطة فلا تلقى بين أهلها واحداً يضحك أو واحداً يبتسم !

ذلك لأنهم من أصل سورى ! والأصل غلاب !

وتلقى فى أشبيلية مرح اللبنانيين وجدهم ونشاطهم .. وكذلك جودهم ونظافة دورهم !

أما فى قرطبة .. فيكثر العراك والشجار فى شوارعها ..

فرانكو . . والطابور الخامس :

ولعل هناك كثيرين لا يعلمون أن عالم الصحافة . بل عالم السياسة

والسياسة والحروب ، يدين للجنرال فرانكو بهذا التعبير الذى انتشر على كل لسان حتى ليوشك أن يأخذ مكانه فى قواميس كافة اللغات ، وأقصد تعبير « الطابور الخامس » .

تقدمت قوات فرانكو — فى أثناء الحرب الأهلية — صوب العاصمة مدريد ، وكانت لا تزال تقيم فيها حكومة الجمهورية وتدافع عنها قوات الجمهوريين .

والتف المراسلون الحربيون للصحف الأجنبية حول الجنرال فرانكو فى مقر قيادته يسألونه عن مقدار أمله فى النجاح باقتحام استحكامات مدريد ..

وأجابهم فرانكو : إن طوابيرى الخمسة كافية تماماً للاستيلاء على مدريد .

قال المراسلون الحربيون : خمسة ؟ ! الذى نعرفه أن هناك أربعة طوابير فقط هى التى زحفت صوب مدريد !

وابتسم فرانكو وأجاب : نعم . ولكن طابورى الخامس فى داخل مدريد نفسها !

يقصد الطابور السرى المؤلف من أنصاره وجواسيسه وعيونه المندسين بين أهل مدريد ، والذين سوف يذيعون الرعب والفوضى والتدمير فى المدينة ساعة تهجم عليها قوات فرانكو ، ويسهلون على هذه القوات مهمة اقتحام مدريد .

وذهبت مثلا يضرب لقوات الأعداء السرية الموجودة وراء الصفوف أو بين الصفوف !

وتحدثت فى هذا مع الصحفى الإسبانى فقال إن هذا « الطابور الخامس » المزعوم لم يكن فى الحقيقة سوى « فشرة » أو لون من ألوان الدعاية قصد بها فرانكو أن يوهم الرأى العام العالمى أن أنصاره كثيرون

فى داخل مدريد نفسها — وهى يومئذ قلعة الجمهورية — فى حين لم يكن قد بقى فى مدريد يومئذ إلا كل جمهورى قح أصيل ! وربما كان لفرانكو يومئذ حفنة من الأنصار والجواسيس ، ولكنهم على كل حال كانوا أقل من أن يؤلفوا طابوراً أو ما يشبه الطابور !

وكأنما أحس الزميل الإسبانى أنه قد أفضى بما لا يستحب أن يفضى به إسبانى مخلص لفرانكو لأنه استدرك بسرعة وأضاف : وعلى كل حال فإن إسبانيا كلها — لا مدريد فقط — قد أصبحت اليوم تلتف حول الجنرال فرانكو !

الكأس ثمنها أربعة مليمات !
ولكن صاحب البار يشيعك بتحيات الشكر إلى الباب :

فى سوق خضار ميدان العتبة الخضراء بار يقصد إليه الممثلون فى أيام الإفلاس .. وهى طبعاً معظم أيام السنة ، وهناك يروون ظمأهم بسعر الكأس الواحدة خمسة مليمات ! وكان هذا قبل الحرب وقبل ارتفاع الأسعار ! أما اليوم فإن سعر الكأس قد ارتفع إلى قرشين ..

ولكنى وجدت فى مدريد باراً أرخص بكثير من بار سوق الخضار ..

قلت لصاحبى الكريم — وهو أحد موظفى مفوضية مصر فى مدريد — إنى أحب أن أرى الأحياء الوضيعة فى مدريد ، وأن أجوس خلالها وأمشى فى حواريها .. فليست فنادق الدرجة الأولى ، ولا مطاعم الدرجة الأولى ، ولا الأحياء النظيفة ، والشوارع الفسيحة بالتى تكشف لك عن حقيقة أى شعب من الشعوب .

وقادنى صاحبى إلى « الباريو باخوس » أى الأحياء الوضيعة فى مدريد ..

« الرائحة » ! .. ليست جديدة على أنفى ! .. فهى قريبة وابنه عم لرائحة بعض أحياء القاهرة !

والأظافر القذرة ! .. والملابس المهلهلة القذرة ! .. والوجوه القذرة التى لم تعرف الماء والصابون منذ أيام .. ولكن السماحة تعلو سماها .. والابتسام دائماً على شفاهها .. هى نفس الأظافر ونفس الملابس ونفس الوجوه القذرة السمحة ، التى تلقاها فى بارات شارع محمد على بالقاهرة ...

ووقفنا – أنا وصاحبى – أمام « البنك » أى رخامة البار ..

واقبلت علينا شقراء ضخمة الجثة مفتولة الذراعين تسألنا أى شراب نطلب ؟

وأجابها صاحبى بالإسبانية التى درسها وأتقنها فى أثناء إقامته فى مدريد ..

وملأت الشقراء كأسين ودفعت بهما أمامنا ..

ثم قدمت طبقاً مملوءاً بالجنبرى على سبيل « المزة » ..

وقضينا نحو ربع ساعة .. وأفرغنا كأسينا كيفما اتفق .. أما الجنبرى فلم نمد له يداً ! ثم طلبنا الحساب ، وإذا بفاتورة الحساب ثمانون سنتيما ! أى ثمانية مليمات .. بما فيها طبق الجنبرى المسلوق !

وترك صاحبى بقشيشاً قدره بيزتتان أى قرشان ..

قرشان بقشيش على حساب قدره ثمانية مليمات !

وشكرتنا الشقراء المفتولة الذراعين بلسان إسبانى مبين ! وخرج صاحب البار يشيعنا شاكراً إلى الباب !

وقلت لصاحبى وأنا أشد إلى صدرى نفساً من الهواء النظيف :

كل هذا الشكر من أجل ثمانية مليمات ؟ ! ترى ماذا يفعلون لو كان حسابنا مثلا عشرة قروش ؟

قال : فى هذه الحالة يشيعك جميع خدم وخادمات البار إلى الخارج وهم ينشدون أغنية إسبانية معناها : « أيها الضيف المحترم العزيز لقد أسعدتنا جداً زيارتك ، فلا تبخل علينا بهذه السعادة مرة أخرى » !

ألا ليت لأصحاب المقاهى والبارات فى مصر مثل هذه الآداب العالية والذوق الحسن الكريم ! ..

الويل لمن تعجب به الراقصة ؟ !

وفى شارع الكالا — أى القلعة وهى كما ترى كلمة عربية حرف نطقها الإسبان — فى الشارع المذكور مرقص أو كاباريه صغير كوكبه أو نجمته راقصة اسمها « لاكونشيتا » .

ولاكونشيتا سمراء هيفاء القد حلوة العينين ، وصاحبة مزاج « نارى» خاص !

إذا أعجبها أحد الحاضرين .. رقصت أمامه وله .. رقصها البديع المثير .. ومالت عليه بين حركات الرقص ، وأرخت جدائل شعرها فوق وجهه !

فإذا ما انتهت من الرقص جلست معه إلى مائدته .. من غير استأذان ! ولو كان الرجل جالساً مع زوجته أو ابنته أو صديقته ! لا يهم ! ولاكونشيتا لا تهتم كثيراً ولا قليلا بالرسميات ..

وتطلب لاكونشيتا الشراب لنفسها ولمن أعجبت به .. ولا يحسبن أحد من زبائن صالات شارع عماد الدين أن لاكونشيتا تطمع فى

« العمولة » ، أو تفعل هذا طمعاً فى المال . كلا لأنها هى التى تدفع الحساب !

وعلى الرجل « المعجب به » — إذا ما انتهت السهرة أن يصحب لاكونشيتا إلى دارها ..

أما إذا رفض الرجل أن يسمح لها بالجلوس معه . . أو رفض أن يصحبها إلى دارها .. فالويل له ثم الويل له ! .. لأن لاكونشيتا سوف تتناول جميع أقداح وصحون الكاباريه وتحطمها على رأس المعجب به المذكور !

ولقد ذكرتنى لاكونشيتا هذه بسيدة من كواكب السينما المصرية كانت إذا ثملت ، وتحركت فى صدرها الأشجان — أشجان الهوى طبعاً ، وذكرى الحبيب المفقود ! — تناولت ما على المائدة من صحون طعام وأقداح وقذفت بها وجوه الحاضرين !!

وقد مرت الراقصة لاكونشيتا مراراً من أمام مائدتى دون أن تلتفت إلى . سامحها الله !

باريس وكيف وجدتها

نوفمبر ١٩٤٦ :

قلت لصحفى باريسى إن أديباً مصرياً كبيراً هو الدكتور طه حسين كتب مقالاقال فيه إن الحياة فى فرنسا سهلة رخيصة ، وإنه كان ينفق هو وأسرته فى اليوم جنيهاً واحداً ، أى أقل من ٥٠٠ فرنك . فأين هذا الرخص مما تعانيه وأعانيه ؟

وابتسم الصحفى الباريسى وقال : لعل أهل باريس تآمروا فيما بينهم ليجعلوا الحياة سهلة رخيصة على أديبكم المصرى الكبير ! !

والحقيقة أن أهل باريس أنفسهم هم أول من يعانى شدة وطأة هذا الغلاء الذى جعل الحياة فى باريس « أغلى » من الحياة بين مدن العالمين.

لقد كنت شكوت من شدة الغلاء فى أنقرة وإستانبول . ولكنى أعتذر اليوم من غير تحفظ لإخواننا الأتراك ، لأن النسبة بين هاتين المدينتين وبين باريس ، هى كنسبة غلاء المعيشة بين فندق سيدنا الحسين — مثلا — وفندق الكونتنتال !

وغلاء باريس من نوع عجيب ، فالأسعار عندنا فى مصر مثلا ترتفع كل شهر أو شهرين ، ولكن الأسعار فى باريس ترتفع من يوم إلى يوم ، بل ترتفع بين الصباح والمساء .

قدح « الفرموت » الذى دفعت فيه أول أمس ، وفى مطعم الفندق ، ٥٥ فرنكاً ، دفعت فيه أمس ٦٥ فرنكاً ، ولا أعرف كم فرنكاً سوف يطلبون منى اليوم .

« والبيجاما » التى طلب منى محل « سولكا » ثمناً لها ستة آلاف فرنك فى يوم الاثنين . . واستكثرت أنا الثمن ، أصبح محل سولكا نفسه يطلب فيها اليوم — الأربعاء — ستة آلاف وسبعمائة وخمسين فرنكاً !

وكانت وجبة الغذاء أو العشاء تكلفنى فى أحد مطاعم الشانزلزيه نحو ألف فرنك . فأصبحت الوجبة نفسها — وبعد أسبوع — تكلفنى ١٢٠٠ فرنك !

والسبب ؟ ! . . عدم استقرار الحالة السياسية ، وما يتبعها من عدم استقرار « الفرنك » على سعر ثابت معلوم .

والسعر الرسمى للفرنك الفرنسى هو ٤٨٠ فرنكاً للجنيه الإسترلينى ، ولكن هذا الجنيه الإسترلينى يطلب اليوم فى السوق السوداء بسعر ٩٥٠ فرنكاً . . أى ضعف السعر الرسمى .

والويل لنا نحن الذين احترمنا القانون وآثرنا أن نشترى عملتنا الفرنسية بالسعر الرسمى الحلال . . إذ أن الفرنك يكلفنا فى هذه الحالة مليمين . . فى حين أن قيمته الحقيقية لا تزيد على مليم واحد ! أى أننا ندفع فى كل شىء ضعف ما يساويه !

ولقد جرت الانتخابات للجمعية الوطنية فى يوم الأحد الماضى ؛ وفى مساء نفس اليوم ، عرف الجمهور أن الحزب الشيوعى يفوز على طول الخط ، وأن النصر مرتقب للشيوعيين . .

وفى سهرة نفس اليوم ارتفعت أسعار الطعام والشراب فى حانات باريس ومطاعم الليل عشرة فى المائة . وفى اليوم الاثنين تأكد فوز الشيوعيين . . وارتفعت الأسعار عشرة ثانية فى المائة !

وهكذا يولى الشعب الفرنسى الشيوعيين ثقته السياسية فى الانتخابات . . لكنه لا يوليهم ثقته المالية ، ولا يطمئن إلى مصير الفرنك على يد زعمائه الشيوعيين !

وكان من جراء هذا الغلاء المطرد أن قامت طبقات العمال والموظفين تطالب بزيادة الأجور . وكان آخرها عمال الكهرباء الذين يهددون بالإضراب العام إن لم تجب طلباتهم . وطلبهم هذ أصبح منذ أمس محل بحث الوزارة الفرنسية . وقد أنذرتنا صحف باريس اليوم أن باريس قد تصبح ابتداء من يوم الاثنين بدون كهرباء ولاغاز ! . .

وهكذا تصبح مدينة النور . . مدينة الظلام !

ولكن هذا الظلام ليس غريباً على باريس ، فقد كانت قلة الفحم وامتناع السلطات البريطانية عن إرسال كمية الفحم المتفق عليها إلى فرنسا ، لأسباب يطول شرحها وليس هنا مقام عرضها ، كان من جراء هذا أن اضطرت السلطات الفرنسية إلى اتخاذ تدابير شديدة وحاسمة لمواجهة الموقف خلال فصل الشتاء . .

ومن بين هذه التدابير تخفيض عدد المصابيح المضاءة فى الشوارع والميادين ، وإغلاق أماكن السهر —من مسارح وسينما وحانات وكاباريها— عند منتصف الليل أو بعده بقليل ،بعد أن كان السهر مباحاً وممكنا حتى الصباح . .

ولكن أشد هذه التدابير مضايقة للجمهور — ولى أنا بوجه خاص — هو قطع التيار الكهربائى فجأة ومن غير تمهيد ولا سابق إنذار لمدة ساعة أوساعتين . .

وتتكرر عملية قطع التيار مرتين أوثلاث مرات فى اليوم .

وقد تكررت أمس أربع مرات . فى الصباح بين ٨ و ٩ ، وبعد الظهر بين ٤ و ٥ ، ثم بين ٦,٣٠ و ٧,٣٠ ، ثم بين ١٠ ,١١ . وقد أكون جالساً إلى مكتبى فى الفندق أكتب خطاباً أو مقالا ، وفجأة يقطع التيار ويسود الظلام ، وأقوم (أدعبس) وأتخبط بين المقاعد أبحث عن صندوق الثقاب ، أوعن باب الخروج . .

أو أكون واقفاً أمام المرآة أحلق ذقني.. أو جالساً أتناول الطعام . . وفجأة يسود الظلام . . ويهرع الخدم يضيئون الشموع .

كما يقطع التيار ويسود الظلام فجأة . . وكذلك فجأة يسرى التيار وينبعث النور . وهنا قد تجد الآنسة الجالسة إلى المائدة المجاورة قد نهضت مسرعة فى طريقها إلى « التواليت » وتجد زميلها قد أخرج منديله يمسح به فى شدة خده وشفتيه ! !

وتبحث السلطات فى هذه الأيام اقتراحاً تقدمت به شركة الغاز والكهرباء يقضى بقطع الكهرباء تماماً يومين متتاليين فى كل أسبوع توفيراً للفحم . وتستثنى الأماكن ذات الفائدة العامة للجمهور مثل المستشفيات وبعض المصانع وترام المترو .

وفى هذه الحالة يقطع التيار من السابعة صباحاً إلى الرابعة مساء ، ما عدا ساعة واحدة عند الظهر ، وساعة أخرى فى المساء من أجل طهى طعام الغداء وطعام العشاء .

وإذا نفذ هذا الاقتراح فإنه سيحدث ثورة فى حياة فرنسا ، وخصوصاً حياة باريس . .

هذه بعض متاعب الحياة فى باريس ... وليس أقلها شأناً ازدحام وسائل الانتقال ، حتى المترو أصبح يذكرنى بتراموای « المدبح » فى الصباح وقد تكدست فيه أكوام الراكبين .

أما « التاكسيات » التى كانت من أرخص ألوان الحياة فى باريس فقد أصبحت فى قلتها وندرتها مثل البن والسجاير والسكر .. لا يقدر عليها سوى أغنياء الأغنياء !

وقد تلقى بعد عناء « تاكسى » ، وتستوقفه ، وإذ تهم بفتح بابه والركوب يسألك السائق : إلى أية جهة تذهب ؟

وتقول له مثلا : الإتوال (فى شمال باريس) .

ويهز رأسه ويقول : كلا . . أنا ذاهب إلى بورت دورليان (فى الجنوب) .

وإذا شئت أن تركب فإن عليك أن تغير خط السير وتذهب إلى الجنوب بدلا من الشمال نزولا على رغبة السائق المفضال .

وعند نهاية الشوط . قد يدل العداد على أن الأجرة المستحقة هى مثلا سبعون فرنكاً . ولكن . .

— إننى أشترى ياسيدى لتر البنزين من السوق السوداء بمائتى فرنك (على هذا الأساس يبلغ سعر الجالون ٨٠٠ فرنك وثمن الصفيحة ٣٢٠٠ فرنك) .

ويمضي السائق فى احتجاجه واعتراضه على العداد وكل من يحترم العداد ؛ ولا تجد مفراً من أن تدفع له ضعف الأجرة التى سجلها العداد !

ومونبارناس ماذا فعل الله بها؟ أين أنوارها ، وأين مقاهيها وحاناتها؟ وأين فتياتها وطالبات السوربون ؟ وأين الفنانون والرسامون والموسيقيون؟ وأين العاملات ؟ وأين المرح ؟ وأين الفتنة ؟ وأين الشباب ؟ . . وأين رواد الدوم والكوبول ؟ !

كل هذا ولى وراح . . «الكوبول» و «الدوم» خاليان أو يكادان ، ويقف خدمهما — كما نقول فى مصر — يهشون الذباب !

سألت أحدهم : ماذا جرى ؟ وأين وأين . . مما كان فتنة وبهجة فى الأيام الخالية ؟ فقال : قلة الأجانب الزائرين ؛ فقد كانت مونبارناس تعيش ياسيدى على زائرى باريس من الأجانب ، ولكن قيود العملة ، وصعوبة وسائل الانتقال ، قد قعدت بالناس عن السفر . ولا بد أن تمضى أعوام قبل أن يعود الأجانب ، وخصوصاً الإنجليز ، إلى باريس

وأما فتيات مونبارناس فبعضهن هرب من باريس هربن إلى إسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسا . . . ولم يعدن منها حتى الآن ، ولعل الحياة طابت لهن هناك . وبعضهن — طائفة الطالبات — عدن إلى أوطانهن ، ولم يعدن بعد إلى باريس . . والبعض منهن بقين ، وتفرقن الآن في أحياء باريس يطلبن الصيد الحلال بين جنود وضباط الأمريكان ، وهؤلاء يعيشون في وسط باريس أو في شماليها بعيداً عن مونبارناس .

وعلى كل حال لم يبق في باريس سوى عدد قليل نسبياً من القوات الأمريكية ، والمنتظر بعد سفر هؤلاء أن تعود الظباء إلى قواعدها في مونبارناس . .

ولكن أسعار الأمس لن تعود ! فلن تقبل فتاة بعد اليوم أن تمنحك سهرتها من أجل وجبة طعام كانت تكلفك في الأيام الخالية ثلاثين فرنكاً أو أقل من ريال !

كلا ! لا بد أن تقدم لها الآن — عربوناً على ودك وإعجابك — علبة سجاير « لاكي ستريك » وقطعتين أو على الأقل قطعة واحدة من الصابون ! وهذه وتلك تكلفانك ما لا يقل عن جنيه !

وبعدها تستطيع أن تفتح معها حديث الغزل وتسمع منها أنها سوف تحبك « مدى الحياة » . . ومدى الحياة في قاموس مونبارناس معناه « أسبوع » !

وأما مونمارتر فإنها أسعد حظاً من مونبارناس ، فلا تزال مسارحها المعروفة مفتوحة تزدحم كل مساء بالمتفرجين برغم ارتفاع الأسعار . ومعظم المتفرجين فرنسيون لا أجانب . والنقود كثيرة — ولكن البضائع قليلة — وهذا من أسباب التضخم وأسباب الغلاء .

ولكن « كواكب ونجوم » ما قبل الحرب قد اختفوا . . وحل مكانهم نجوم جدد .

وبين الذين اختفوا موريس شفالييه . فقد ظهر أولا على مسرح «أ ب ج» ، ولكنه لم يلق قبولا كبيراً عند الجمهور . ولعله لا يزال متهماً عند الكثيرين بأنه تعاون مع الألمان، مع أن حكماً قضائياً صدر ببراءته من هذا الاتهام .

ولما انتهى عقد اتفاقه مع المسرح المذكور ، رفض المسرح أن يجدد العقد . . ولم يتلق موريس عرضاً من أى مسرح آخر . وهو الآن ينشر مذكراته فى إحدى صحف باريس ! ويبدو من مقالاته أنه بدأ يعتنق مذهب الشيوعيين ؟!

والعجوز الخالدة «مستنجت» تقضى الآن شهر العسل مع زوجها الشاب الإيطالى . وعمر العريس ٣٠ سنة وعمرها هى ٧٩ سنة !

وقالت إحدى مجلات باريس — ومن الصعب ترجمة النكتة الفرنسية إلى العربية — قالت إن هذا الزواج ليس زواجاً بالمعنى المفهوم ، بل هو زواج بالتبنى !

لأن مستنجت كانت تزوجت من جد العريس فى عام ١٨٩٩ !!

ومع ذلك فإن مستنجت ما تزال صاحبة أجمل ساقين فى باريس !

وجوزفين بيكر كوفئت منذ أيام بوسام فرنسى على عملها فى حركة المقاومة السرية فى أثناء الاحتلال . . .

وكانت قد ذاعت قبل الانتخابات الأخيرة شائعة تقول إنها سوف ترشح نفسها نائبة عن إحدى دوائر المستعمرات الفرنسية . . . ولما لم يظهر اسمها فى قوائم المرشحين ، قالت إحدى المجلات إنها سوف تتقدم لانتخابات مجلس الشيوخ ! ويسمونه الآن مجلس الجمهورية !

وعلى كل حال فإن جوزفين لا تعمل الآن على مسارح باريس !

• • •

هذه صورة سريعة عن باريس . . .



الجنود الأمريكان فى باريس أثناء الحرب العالمية الثانية

وإذا كان هناك خبر يضاف إلى ما سبق فهو أن طبيباً اسمه هـ . ح . فيولا قد اكتشف علاجاً للصلع . وقد بدأ تجاربه فى صلعة رجل اسمه مسيو جان لافينى . .

والعلاج يستغرق أسبوعين .

وتؤكد صحف باريس أن « فروة » أو « زغباً » خفيفاً قد ظهر فى صلعة مسيو لافينى بعد أسبوع من بدء العلاج !

وبعد ... فإن باريس متعبة حقًّا . ولكنها ما تزال حبيبة إلى القلب ... حبيبة بالرغم من « ظلامها » وبالرغم من غلائها . . . حبيبة لأن جمالها خالد ، ومرحها خالص صادق ، وفتنتها لم تنل منها سنوات الشقاء. بل هى أشبه بالمرأة التى يلمع جمالها ويبهر إذا امتلأت عيناها بالدموع !

سرت على قدمى نحو ثلاث ساعات . مكرهًا لا بطلا . فأنا أكره المشى ، ولقد كان أمس الأحد . وكان الجو صحواً ، وللمرة الثانية — فى أسبوعين — رأينا الشمس وأحسسنا دفأها . ولو كان الأمر بيدى أو كان الأمر كالزمان الأول . لناديت « تاكسى » وقلت للسائق : غابة بولونيا ، أو فيلبيه سيرمارن . . . أو أية ضاحية من ضواحى باريس أتناول فيها غدائى بين الماء أو الخضرة وبس ! ولكن أين هو التاكسى !

خرجت إذن من فندق الكريبيون سائراً على قدمى . . مخترقًا ميدان الكونكورد — وكان من قبل ميدان الثورة — وقد قامت فى وسطه المسلة المصرية ، على مقربة من المكان الذى قامت فيه منذ قرن ونصف قرن المقصلة (الجيليوتين) التى سقط تحت حدها رأس لويس السادس عشر ، ومن بعده رأس مارى أنطوانيت .

واجتزت الميدان إلى كوبرى ألكسندر ، أجمل جسور باريس المقامة على نهر السين .

رعاع الأمس حكام اليوم :

وعلى هذا الجسر . وفى أوائل عام ١٩٣٤ . حاول « الرعاع » كما أسماهم رئيس وزراء فرنسا وقتئذ إدوارد دلادييه — حاولوا أن يجتازوا الجسر ليهاجموا قصر بوربون ومقر مجلس النواب . وأمر دلادييه رجال البوليس بإطلاق النار على جموع الرعاع !

وكانت هذه المظاهرة أول حركة عنيفة قام بها « اليسار » من كثرة اشتراكية وقلة شيوعية ، وهم الذين أسماهم دلادييه يومها « الرعاع » !
ورعاع الأمس هؤلاء هم اليوم أصحاب الكثرة . . . وأصحاب المنصب والسلطة والحكم فى فرنسا !

« الصديقة » الرسمية ؟

وفى مواجهة الكوبرى يقوم قصر بوربون . . . مقر مجلس النواب . والجزء الذى لا يتجزأ من تاريخ فرنسا خلال القرن ونصف القرن الأخير . والقاعة التى دوت فيها أصوات زعماء الثورة ، ومن بعدهم مشاهير الأقطاب من جامبتا وكليمنصو وبوانكاريه وميليران ، إلى زعماء الأمس القريب مثل لافال ابن الجزار ودلادييه ابن الخباز والمعلم سابقاً فى مدرسة الليسيه . . . ويدوّى فيه اليوم صوت الشيوعيين طوريز البناء وديكلوه الحلوانى ، وكلاهما بين المرشحين لرئاسة الوزارة !

وهذه هى الديمقراطية بحسناتها وسيئاتها !

وفى الميدان ، وإلى يمين قصر بوربون ، تقوم عمارة . . . كانت تسكن فى إحدى شققها كونتس هيليين دى بورت صديقة بول رينو رئيس الوزارة فى عام ١٩٤٠ . . . وقد قتلت فى حادثة سيارة فى العام نفسه .

ولم تكن هيلين جميلة ، ولا على شيء من الجمال . ولكنها كانت ذات شخصية قوية عصبية ، وكانت طموحاً ، وكان أقصى مطامعها أن تدفع أمامها عشيقها بول إلى أعلى درجات سلم المجد ، وأن تصعد هي وراءه . وقد استطاعت أن تفرض إرادتها على إرادته ... كان الرجل ، ومازال ، فرنسيًّا وطنيًّا مخلصاً ، وكانت هي من أنصار سياسة الاتفاق مع هتلر وألمانيا ...

كان رينو يبرم الأمر فى الصباح ، لكى تنقضه هى فى المساء . أما الأمر الذى كانت تبرمه هى ، فالويل لرئيس الوزارة — بول رينو — إذا راجعها فيه ...

كانت تذهب معه إلى مقر عمله الرسمى فى « الكى دورسيه » — وزارة الخارجية — أو إلى سراى ماتنيون ، وكانت تجلس إلى مكتبه وترد نيابة عنه على التليفون !

وكانت تستقبل رؤساء الجيش وأميرالات البحر ، وتصدر أوامرها إليهم ... والويل للعزيز بول أو « ميكى ماوس فرنسا » — كما كان خصومه يسمونه — إذا اعترض أو نقض أمراً من أوامرها . كان صياحها يعلو على كل صوت وكل ضوضاء حتى يسمعه المارة فى الطريق !

ونشبت الحرب وبول رينو وزير للعدل فى وزارة دلادييه ، ولكن هيلين كانت تطمع فى رئاسة الوزارة لصديقها بول ؛ ومن ثم راحت تدفعه وتوغر صدره وتوحى إليه بالمقالب والمشاكل والعقبات يقيمها فى طريق دلادييه .

وكان لها ما أرادت ، وسقط دلادييه ، وتولى الحكم بول رينو ...

وانتصرت هيلين دى بورت على غريمتها المركيزة جان دى ... « صديقة » دلادييه ! (وهى لا تزال فى باريس وعلى قيد الحياة) .

وهكذا كانت الوزارات تقوم وتسقط فى فرنسا فى عهد ما قبل الحرب...

كانت المرأة كل شيء من وراء الستار ؛ لأن كل زعيم من زعماء فرنسا كانت له « صديقة » رسمية يختارها من بين نبيلات وشريفات فرنسا .... أو من بين راقصات الأوبرا أو ممثلات الكوميدى فرانسيز ولا داعى لذكر الأسماء !

ولما استفحل يومها أمر هؤلاء « الصديقات » وازداد تدخلهن فى سياسة فرنسا ، كتبت مجلة « لى كانارانشنيه » تتساءل : ألويس الخامس عشر لا يزال على قيد الحياة ؟! إشارة إلى عشيقته المشهورة مدام دى بومبادور التى كانت تعين السفراء وتقيل الوزراء !

وللمجلة المذكورة عبارة مشهورة أطلقتها فى « بونيه » وزير الخارجية الفرنسية عند قيام الحرب . . . قالت عنه يومها إن مسيو بونيه يخدم مصالح كل دولة فى أوربا . . إلا دولة فرنسا .

هذا هو عهد ما قبل الحرب . . فهل انقضى إلى غير رجعة ؟
هذا ما يؤكده الفرنسيون اليوم .

الخالدون الأربعون :

هأنذا قد وصلت فى سيرى إلى تمثال الساخر الخالد «فولتير» وهاهى ذى إلى يمينى الدار التى سودها دخان باريس وضباب باريس ورطوبة السين .. دار الأكاديمية الفرنسية مقر « الأربعين الخالدين » كما يسميهم الفرنسيون . هذا وإن يكن هؤلاء الفرنسيون لا يعرفون أسماء هؤلاء الخالدين ، تماماً كما هو الحال فى مصر ، فكم بين المصريين من يعرف أسماء « الخالدين » أعضاء المجمع اللغوى ؟!

والخالدون مشغولون الآن بإعداد قاموس كامل للغة الفرنسية ، وهم لا يوافقون على إدراج أية كلمة فى القاموس إلا إذا كان قد مضى

على شيوعها واستعمالها! عشرون سنة على الأقل ! ومن هنا سوف يجيء قاموسهم — كما جاءت قواميسهم السابقة — بعيدة عن روح العصر ولغة العصر الذى نعيش فيه .

وكانوا قد أصدروا فى عام ١٩٣٥ الطبعة الثامنة من قاموسهم . وطبعوا منها خمسة عشر ألف نسخة لم تبع المكاتب منها — برغم رخص ثمنها — سوى بضع مئات ؛ ذلك لأن قاموس « الخالدين » لا يحتوى إلا على خمسة وثلاثين ألف كلمة . فى حين يحتوى قاموس « لاروس » على مائة وعشرين ألف كلمة .

هتلر ونابليون :

وتعبت قدماى من المشى فوقفت ، وظهرى إلى نهر السين ، مستنداً إلى جدار « الرصيف » . ومن حيث وقفت بدت أمامى قباب « الأنفاليد » الذهبية التى شيدها الملك « الشمس » لويس الرابع عشر ، والتى يرقد تحتها منذ قرن رفات الإمبراطور نابليون .

ولقد زارها هتلر بعد سقوط باريس . أقبل هتلر على « الأنفاليد » ومن خلفه جيش من الصحفيين والمصورين الألمان والمحايدين .. وكل منهم ممسك بقلمه أو بآلة التصوير وقد حبس أنفاسه ليسمع ويسجل ما يقوله هتلر أمام قبر نابليون ... ولكن هتلر وقف طويلا . . . طويلا ... طويلا ، يحدّق ، ويحدّق تحته فى الصخر الأصم الذى يضم رفات نابليون . وطالت وقفته ، وطال سكوته .

ترى فيم كان يفكر ؟ فى أوجه الشبه بينه وبين نابليون ؟... وفى أن نابليون كان معروفاً فى جيشه بلقب « الكابورال » أى « الأومباشى » الصغير ؟!

وكان هتلر فى الحرب العالمية الأولى « أومباشى » ... وكلاهما كان « أجنبياً » — بمعنى ما — عن البلد الذى تولى فيه السلطان . كان نابليون من جزيرة كورسيكا ، وكان هتلر من بلدة « لنز » فى النمسا.

دوخ نابليون أوربا ، وزلزل عروشها وأخضعها بسيفه وسلطانه .. وها هو ذا هتلر — فى يونية سنة ١٩٤٠ — قد أخضع ست دول من دول أوربا فى تسعة أسابيع !

والخاتمة . . النهاية !

هل فكر هتلر يومها فى نهاية نابليون ؟ . . وهل يرفعه القدر — كما رفع نابليون — لكى يهوى به بعد حين ؟

ألهذا طالت يومها وقفته وطال سكوته ؟! هل رفعت عن بصره حجب الغيب فرأى نهايته بعد خمس سنوات ... وأن هذه النهاية ستكون أقسى وأفجع من نهاية نابليون ؟!

تعال معى إلى الريفييرا

مونت كارلو – ديسمبر ١٩٦٧ :

كثيراً ماقيل إن شرفة (تراس) فندق شبرد بالقاهرة (الفندق القديم الذى احترق فى يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢) هى ملتقى أمم الأرض ، وإن رجال الأعمال والصحفيين وهواة السفر لا بد أن يمروا بها فى يوم ما . . وإنك إذا أردت أن تقابل إنساناً ما فى العالم فما عليك إلا أن تجلس فى شرفة فندق شبرد وتضع ساقاً على ساق وتنتظر... وقد يطول انتظارك ، ولكن لا بد أن يمر بك الذى تريد مقابلته ، ولو بعد عام أو عشرة أعوام !

ويمكن أن يقال هذا عن كافيه (مقهى) ده بارى فى مونت كارلو فهو مثل شرفة شبرد ، ملتقى أمم الأرض ، ولا بد لكل رحالة أو صحفى أو عظيم أن يمر به ويجلس فيه يوماً ما .

و « جاستون » رئيس الخدم مستعد دائماً – وفى مقابل سيجارة – أن يقص عليك كيف كان صاحب الجلالة جوستاف الخامس ملك السويد يتناول عنده – عند جاستون – الشاى .

هذا قبل الحرب ، وكان جلالته يمضى الشتاء دائماً بين « نيس » « وكان » على الريفييرا . وكانت رياضته المحبوبة – وما زالت – لعب التنس ... ومستر تشرشل من زبائن جاستون أيضاً . ولكنه لم يكن يتناول الشاى بل شراباً آخر أقوى من الشاى !

ودوق ودوقة وندسور ، وخديو مصر السابق عباس حلمى ، وأغا خان ، وستافسكى النصّاب المالى الفرنسى المشهور ، وجريتا جاربو

وهى فى طريقها إلى إيطاليا عام ١٩٣٨ ... كل هؤلاء جلسوا فى مقهى دى بارى ، وجاستون يعتز بذكرياتهم ، ولا شىء يلذ له أكثر من أن يقضى ساعة فى الحديث معك عن هؤلاء العظماء !

وكانت آخر مرة جلست فيها فى كافيه دى بارى فى أواخر شهر أغسطس عام ١٩٣٩ . وكان نذير الحرب يدوى ، فهبطت من باريس إلى الريفييرا وأقمت بضعة أيام فى كاب داى ومونت كارلو فى طريقى إلى مارسيليا ، والباخرة ، ثم كنانة الله فى أرضه التى هى مصر .

ويقع كافيه دى بارى فى صدر الميدان الذى يقوم على جانبيه كازينو مونت كارلو وفندق دى بارى . . . وتمر بهذا الميدان خطوط كثيرة من « الأومنبوس » ، وهى سيارات ضخمة فخمة مريحة تسير على طول الريفييرا بين منتون وكان ، وما وراء « كان » من القرى الصغيرة التى أصبحت مشاتى يفضلها طلاب الراحة والشمس والهدوء .

كان الجو أشبه بجو الربيع فى رمل الإسكندرية ، شمس حنون ناعمة ، ونسيم بارد إلى حد ما ، فركبت إحدى هذه السيارات ومعى صحفية روسية كنت قابلتها على ظهر الباخرة « بروفيدانس » ، ثم جمعتنا المصادفة هنا .

تشرشل فى الريفييرا :

وكان مستر تشرشل كثير التردد على الريفييرا قبل الحرب الماضية ، وكان ينزل عادة فى ضيافة أسرة فرنسية نبيلة فى قصرها فى « كاب دانتيب » ، وكان يقضى صباحه بثوب الاستحمام ومن فوقه « برنس الحمام » ، وكلاهما لونه أحمر فاقع . . . ومن فوق رأسه قبعة عريضة من الخوص . ولكنه لم يكن ينزل إلى البحر ، بل كان يقنع بالتمدد فوق كرسى طويل على شرفة تطل على البحر . . . ليتحدث إلى من حوله فى السياسة وفى أخطاء

زملائه زعماء المحافظين ، الذين كان يكرههم أكثر مما يكره زعماء العمال أو الأحرار ! فكان مستر بلدوين فى نظره رجلا لا تعوزه الشجاعة ، ولكنه كان مولعًا بالجلوس فوق الجدار — ومعناها عندنا الوقوف بين معسكرين أو المشى على حبلين !

أما مستر نيفل تشامبرلين فكان تشرشل يقول عنه إنه مغرور وغبى ولا يصلح لشىء إلا للجلوس فى مكتب تجارته . . . تجارة الصينى وأدوات المطبخ والكرار .

وسئل يومًا عن البريطانى الذى يعتقد أنه أعظم ساسة القرن العشرين . فأجاب بعد لحظة قصيرة : أنا . . . ورامزى ماكدونالد لو كان ولد ونشأ وتربى فى حزب المحافظين !

دوق وندسور :

وفى قرية « إز » كان يقيم فى وقت ما فى دار صغيرة إدوارد ألبرت كريستيان أندرو باتريك دافيد ملك إنجلترا سابقًا ودوق وندسور الآن ، ومعه زوجته التى ولدت فى باليتمور ، واسمها بسى واليس وارفيلد وأصبحت الآن صاحبة السمو الملكى دوقة وندسور .

ولكن هذا هو لقبها خارج إنجلترا فقط . . . أما فى إنجلترا الرسمية فلا يعترف لها بالسمو الملكى .

والاثنان محبوبان هنا فى الريفييرا ، وكلاهما كثير الاختلاط بالناس وبكافة الطبقات ، ولم يكن غريبًا أن يقابل زائر الريفييرا « إدوارد الثامن » سابقًا فى دكان بقالة يشترى بضع علب سردين . . . أو يحمل فى يده كيسًا من الورق فيه خضار وفاكهة يحمله إلى زوجته ، وهى تنتظره فى السيارة الواقفة فى الميدان !

حدث ذات مساء فى قاعة الطعام فى فندق كارلتون فى « كان » : أن دخل دوق ودوقة وندسور . وكانا فى طريقهما إلى مائدتهما . . . مائدة كان يجلس حولها بضع سيدات إنجليزيات ، ونهضت السيدات عند مرور الدوق احتراماً . وحنى هو والدوقة رأسيهما تحية . وابتسمت الدوقة ابتسامة عريضة للسيدات الإنجليزيات .

ولكن إحداهن قالت وهى تجلس ثانية . . . قالت بصوت سمعه جميع من كانوا فى هذا الركن من قاعة الطعام ، والدوقة طبعاً معهن : لقد وقفنا احتراماً لسمو الأمير . . . وحده !

وكره سيدات الطبقة الإنجليزية الراقية لدوقة وندسور أمر معروف !

ملوك الحرب والمال :

وقد قنعت فى الغداء بالمحار والسَّمك والخضار ، فى حين التهمت الزميلة « بفتيكا » شهياً من لحم الخيل ، ثم قمنا نتمشى على طول شاطئ البحر ، أو كما يسمونه فى نيس : ممشى الإنجليز « بروميناد دزانجليه » وإلى الخلف فى الشارع المواجه للكازينو تقوم حتى اليوم « فيلا » هى أقرب فى حجمها إلى أن تكون قصراً منيفاً . . . يسميها بعض الأهالى « الفيلا الحزينة » ، وكان يقيم بها رجل أوربا الغامض ، كما كانت الصحافة تسميه منذ نحو ثلث قرن أو يزيد أعنى سير بازيل زاخاروف ملك الذخائر الحربية ، وصديق ملوك أوربا ، والحاكم المتصرف فى ساسة أوربا وفى سياستها ، والعامل القوى المحرك للحرب والسلام من وراء الستائر ، الحائز للوشاح الأكبر من نيشان الحمام ، والوشاح الأكبر من نيشان اللجيون دونير . . . وبازيل زاخاروف يونانى الأصل . ولد من أسرة فقيرة فى قرية من أعمال أزمير فى الأناضول ، ورعى الغنم فى صباه ، ثم هاجر

إلى أوربا ... وجاء يوم كان يتأبط فيه ذراع إدوارد السابع ملك إنجلترا ويمزح معه من غير كلفة .

وقالت الزميلة الروسية :

فى هذه الفيلا كان يقيم زاخاروف الحفلات . وكان يجتمع عنده هنا فى نيس زملاؤه ملوك المال والصناعات فى فرنسا وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا والسويد وهولندا . . . وكنت ترى بين مدعويه البارون دترونج الهولندى وشنيدر الفرنسى ونيسن الألمانى ، وكان همهم الأول حماية أملاكهم وأموالهم الموزعة فى أركان الأرض . . . وحماية مصالحهم فى أوربا وأمريكا وأفريقيا . . .

وبالرغم من المنافسة فى ميادين الأعمال والمال ، كان بينهم شبه اتحاد أو ائتلاف ضد العدو المشترك : الشيوعية . . . والخوف من انتشارها بين طبقات العمال . وعلى أكتاف العمال قامت ثرواتهم الضخمة التى تعد بمئات الملايين ! . . .

ومن ثم آزروا الاشتراكية الوطنية فى ألمانيا ، والفاشية فى إيطاليا ، ومدوا هتلر وموسولينى فى دور كفاحهما الأول بالأموال ، وهكذا مهدوا للحرب العالمية الثانية التى ابتلعت أموالهم فى فرنسا وتشيكوسلوفاكيا وهولندا وبلجيكا . . . وكادت توردهم موارد الخراب . . . ولكن زاخاروف لم يعش ليرى ذلك اليوم ، فقد مات قبل نشوب الحرب ببضع سنوات حزناً على زوجته التى كان يحبها حتى العبادة . ولعل حبه هذا هو النور الوحيد فى حياته . . . النور القدسى الذى قد يقربه إلى عرش الله ! . . .

وجلسنا نتناول الشاى فى كازينو نيس ، وقالت الزميلة : أعتقد أنه قد مضى ذلك العصر الذى كان ممكناً فيه أن يجمع رجل واحد بين يديه ثروة ضخمة يتحكم بها فى ذمم قادة الأمم وفى أقدار الشعوب ! . . .

سويسرا كما رأيتها

سان موريتز فى ٣ يناير :

إذا كانت إنجلترا وفرنسا وأوربا الوسطى والشمالية قد عانت فى الأيام الأخيرة موجة من البرد القارس آتية من سيبيريا ، وزادت من قسوتها قلة الفحم ، فإن سويسرا ، ولا سيما سان موريتز ، تشكو من قلة الثلج الذى لا غنى عنه لألعاب الشتاء . وقد قضيت هنا إلى الآن أسبوعين كانت الشمس فى كل يوم تقريباً حامية تذكرنى بأسوان ، لولا أن درجة الحرارة هنا عشرة تحت الصفر فى النهار ، و ١٧ فى الليل .

وكانت الفنادق هنا تتوقع أن يبلغ موسم الشتاء رقماً قياسيًّا يجاوز ما بلغته ذروته قبل الحرب ، وكانت المشاتى المشهورة مثل سان موريتز ، ودافوس ، وأروزا ، قد حجزت فيها المحال طول الوسم ، أما الفنادق الفخمة مثل سوفريتا ، وبالاس ، فحجزت فيها المحال إلى آخر يناير ، ولكن القيود الجديدة التى فرضت على خروج النقد دعت إلى إلغاء الحجز فى آخر لحظة ، ولا سيما حجز السياح البريطانيين ، فكانت النتيجة أن الفنادق الكبرى أصبحت غير غاصة ، ولا تمتلئ إلا فى فترات وجيزة ، وذلك لأن الاتفاق الذى عقد حديثاً بين بريطانيا وسويسرا يقضى بأن السياح البريطانيين — وهم لا يسمح لهم إلا بخمسة وسبعين جنيهاً فى الشهر خارج إنجلترا — لا يأخذون عند وصولهم إلى هنا سوى ثلث هذا المبلغ أى ٢٥ جنيهاً نقداً لنفقاتهم الشخصية ؛ أما الثلثان الباقيان فأذونات لا تستخدم إلا فى دفع نفقات الفنادق والمطاعم والملاهى والتنقل .

والغرض من هذا القيد هو حماية أسواق سويسرا من السياح الذين يستخدمون ما معهم من مال فى شراء السلع التى لا يمكن الحصول عليها فى بريطانيا .

وكان هؤلاء السياح يجيئون ومعهم كل المبالغ المسموح لهم بها فى الشهر ، فيقيمون يومين ويعودون إلى إنجلترا مثقلين بالبضائع السويسرية . أما النظام الجديد فيضمن إنفاق ثلثى المبلغ المسموح به فى أغراض السياحة الحقيقية ، ويترك للسائح ٢٥ جنيهاً ينفقها فيما يشاء .

* * *

ويفكر أولو الأمر فى سويسرا فى الاتصال بالحكومة المصرية لعقد مثل هذا الاتفاق فيما يتعلق بالمصيفين المصريين . وذلك لأنه حدث فى الصيف الماضى أن جاء بعض المصريين إلى سويسرا ، ليحولوا ما معهم إلى فرنكات سويسرية ويستبدلوا بها فرنكات فرنسية ، ثم يطيروا عائدين إلى باريس فى اليوم نفسه .

ومع أن هذا القيد لا غبار عليه من الوجهة الاقتصادية ، فإن أصحاب الفنادق يشكون منه ويتذمرون ، ويقولون إنه يقضى على موسم السياحة فى سويسرا ، وإن السياح يفضلون الآن أن يذهبوا إلى الريڤييرا أو المشاتى الفرنسية حيث تكاليف المعيشة أرخص ، والأنظمة غير شديدة ، ولا وجود لمثل هذه القيود . غير أن دوائر الحكومة السويسرية تقول إن سويسرا اليوم فى موقف شاذ يضطرها أن ترفض الدفع لها بعملة أجنبية ولو كانت ذهباً ، وتقول أيضاً إن لدى سويسرا الآن كل الذهب الذى تحتاج إليه ، وكل الدولارات وكل الجنيهات الإسترلينية التى تلزمها وزيادة . أما الذى تفتقر إليه سويسرا حقاً فهو القطن والصلب والقمح والحبوب والسكر والخامات ، لكن بدلا من أن يدفع لها الأجانب عيناً هذه المواد ، تبيع هى بضائعها بنقود أجنبية لا تحتاج إليها .

والواقع أن الزائر يرى فى سويسرا دلائل الرخاء فى كل مكان ، فالمحال التجارية فى كل المدن الكبيرة غاصة بكل أنواع الأطعمة والبضائع التى يصعب الحصول عليها فى أى مكان آخر فى أوربا الجائعة . ومن أمثلة ذلك أن جنيف لا تبعد إلا دقائق بالترام أو القطار عن أرض فرنسا ، ولكن المسافر الذى ترك وراءه دكاكين خالية فى أرض فرنسا يجد فى جنيف وفرة فى السلع والأطعمة والأشربة حتى فى الأنبذة الفرنسية التى يتعذر الحصول عليها فى فرنسا نفسها فيما عدا السوق السوداء . ويؤكد السياح البريطانيون أنهم يجدون فى سويسرا من السجاير الإنجليزية والويسكى الأسكتلندى والمصنوعات الجلدية البريطانية أكثر مما يجدون فى بريطانيا .

والحقيقة أن نظام البطاقات والكوبونات إن كان معمولا به هنا فإن المواد الناقصة حقًّا هى السكر والخبز ، وجراية الخبز هنا أقل منها فى إنجلترا ، وأهل سويسرا فيهم ذمة لا تسمح لهم بالاتجار فى السوق السوداء التى لا تكاد توجد إلا فى جنيف الدولية التى يكثر فيها اليهود .

* * *

وسويسرا بلاد نجت بأعجوبة من آثار حربين عالميتين وبيلتين ، وزادت على ذلك أنها استفادت منهما ، فازدهرت الصناعة السويسرية فى أثناء الحرب ، ولا تزال مزدهرة ، والبضائع السويسرية مطلوبة فى كل مكان فى العالم ، وكان من الممكن ، أن تغرق أسواق العالم لولا نقص الفحم وقلة الأيدى العاملة . وقد استغل رجال الصناعة السويسرية انهيار الصناعة الألمانية فوثبوا واحتلوا مكان ألمانيا ، ووجد الألمانيون من العلماء والخبراء والمهندسين الفارين من ألمانيا ترحيباً بهم هنا ، وعقوداً مهيأة للانتفاع بهم ، وهم يساعدون المصانع السويسرية الآن على إنتاج

كل البضائع والمواد التى كانت تصنع فى ألمانيا .

وقد بلغ من رخاء سويسرا أنها استطاعت منذ سنة ١٩٤٥ أن تقرض فرنسا وبريطانيا وبليجكا وهولندا وبولندا اوتشيكوسلوفاكيا ، ولكن على الرغم من كل هذا الرخاء الذى كان الفضل فيه لدقة الرقابة الحكومية على الأسعار ، لم ترتفع تكاليف المعيشة إلا ٥٣ ٪ على ما كانت عليه سنة ١٩٣٩ ؛ فلا عجب إذا كانت سويسرا قد خلت من اضطرابات العمل والعمال ، وساد السلام فى كل مكان إذا استثنينا اضطرابات قليلة فى منطقة زوريخ .

وهكذا نجت سويسرا من ويلات الحرب العالمية الثانية ، بل خدمتها الحرب ، وهى تستعد لأول موسم شتوى حقيقى فى زمن السلام ، ومع أن الموسم لم يبلغ ما كان منتظراً للأسباب التى ذكرتها ، فإن الأندية والدوائر تعرض برامج شبيهة ببرامج ما قبل الحرب .

* * *

وقد اجتذبت سان موريتز العالمية الشهرة بالزحلقة ومبارياتها وضروب السباق المختلفة عدداً كبيراً من السياح البريطانيين على الرغم من القيود المالية ، أكثرهم من الشيوخ أو الصغار الذين تروح أعمارهم بين الثانية عشرة والسادسة عشرة . أما الشباب من الرجال والنساء فيما بين العشرين والخامسة والعشرين — فلا يزالون فى صفوف القوات العسكرية فى الخارج ، فى وسع القارئ أن يدرك أن الحياة الاجتماعية الليلية ليست ممتعة بالقياس إلى أيام ما قبل الحرب .

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٠/٤٠٠٣
مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٠


الكتاب
القادم
إقرأ
ماذا نستخرج من البترول
دكتور جورج وهبة العفي

دار المعارف بمصر

تقـــدم

٤ كتب للأستاذ محمد التابعى

● بعض من عرفت

قصص حقيقية من واقع حياة المؤلف وهى « بعض » من عرف لأنه لاتزال هناك كثيرات لم يكتب قصته معهن أو قصصهن معه ٣٥ قرشا

● جريمة الموسم

قصة أثارت اهتمام الناس واعتقدوا أنها حقيقية وقد أخرجها التلفزيون فى ١٢ حلقة ٣٠ قرشاً

● عندما نحب

قصة شاب يعرف ماهو الواجب . . ماهو الضمير . . . التضحية . . . الفداء . . . من أجل من يحب ٣٠ قرشاً

● لماذا قتل

شاب ميسور الحال ومكتمل الصحة والعافية يقتل رجلا لم يسمع باسمه إلا فى صباح يوم ارتكاب الجريمة و برغم اعترافه فإنه لم يفصح عن الأسباب . . . لماذا ؟ ٢٥ قرشاً

خذ المعارف من دار المعارف

٤٠٣٦٦٧

م ١٠